رواية
مدينة الذئب
عبدالله أسامة
عصير الكتب
تصميم الغلاف

عبدالله أسامة

مدينة الذئب

(رواية)

جميع الحقوق محفوظة © عصير الكتب للنشر الإلكتروني

http://book-juice.com

مدينة الذئب

الكاتب : عبدالله أسامة

نشر في : أبريل 2016

تنسيق داخلى : عصير الكتب للنشر الالكترونى

تصميم الغلاف : محمد حافظ

إهداء

إلى من يخلعون رداء الأيديولوجيا ..

في محراب الفن.

كانت حارس الحدود، لذلك فقد طاردت ذئابها جيشًا حبشيًا، وعبد أهلها إله الحرب والصيد، الذي اتخذ صورة ذئب، فسميت ليكوبوليس.. أي مدينة الذئب.

قصدتها فتنة لتسكن فيها، فقد أعجبتها فكرة ارتباطها بثلاثة طرق جبلية للتهريب، جعلتها أكبر سوق للسلاح في مصر.

لم يكن السلاح هو تخصص فتنة الرئيسي. بل كانت شيخة يستعين بها المهربون للكشف عن الآثار، لكنها جمدت نشاطها، بعدما تسببت في تصفية عشرين رجل لبعضهم البعض، فوق مقبرة فرعونية، ثم اغترفت من ذهبها، وولت هاربة إلى ليكوبوليس.

تنقلت بين عدة منازل، ثم استقرت بشقة في الدور الأول، تحت شيخ ذا نفوذ يدعى أبو بكر. فقد وقعت في حبه، بسبب تلك الهالة القدسية، التي أضفاها عليه تلاميذه. فأرادت أن تمزق هذه الهالة بأسنانها. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد، بل كان هناك شعور سحري يربطها به، لم تجد له تفسيرًا رغم طول عهدها بالسحر.

كانت تبحث عن ذئب المدينة، توقعت أن تقع في حب تاجر سلاح أو زعيم مافيا، ليس مجرد شيخ يتنقل بين المساجد ويلقي الدروس. لكنه حكم القلب. لذلك قررت أن يكون هذا الرجل هو نشاطها الجديد.

لكنه لم ينظر إليها بعد النظرة الأولى، كان يتحاشاها دائمًا، فزاد هذا من ولعها به، وقضت أيامها تحبك الخطة تلو الأخرى، فشلت كثيرًا لكنها لم تيأس. حتى نالت مرادها أخيرًا. وجاء إليها مساقًا، ففتحت له الأبواب، وأدخلته في عالمها السحري، وأعطته منها وأخذت منه، حتى جعلته ذئب المدينة.

***

(١)

ياللهفة وياللرجفة، يا لحرقة الاشتياق. ترتعش يده فيكورها، يسترق النظر إلى عينيها، يحاول استشفاف وجهها من خلف النقاب، حتى القمر قد توارى خلف سحب الليل السوداء، والأرض المزروعة بالحشائش قد ضاقت في عينيه، رغم تناثر الأشجار، في هذه الليلة الحزينة الهادئة.

كل شجرة من هذه الأشجار، قد شهدت عصورًا بعد عصور، قد ارتوت بالهمسات المشتاقة، والتنهدات الضارعة. كان يحج إليها كل اثنين أخلصا الحب، وخانهما الحظ، أما الآن فلن يحج إليها أحد، فسوف تقتلعها داعش من الجذور، وتبذر مكانها أشجارًا، ترتوي بدماء العاشقين.

ونظر حوله إلى الطريق الخالي، العربات الهاربة، الحوانيت المعدودة، المارة القليلين، والجسر. كان هذا الجسر هو ممرهما الآمن، من دنيا التيه إلى دنيا الذهول، عندما لم يجدا مفرًا غير الذهاب إلى أطراف المدينة، كي يبتعدا عن الزحام، وعن داعش. كي يفلتا من ظل أبيها، أبو بكر القاهري.

لم يكن هناك أنسب من هنا. لهذه المقابلة التي يخطط لها منذ أسبوع. حتى استقر واطمئن قلبه، ولقنها وشرح لها، وجاء البارحة وحيدًا في جولة يستكشف المكان. وهاهي المقابلة قد تمت أخيرًا. لكنهما ذاهلان، على غير العادة، هو في عالمه، وهي في عالمها.

"لا بأس ببعض الجرأة في ليلة الوداع". هكذا أخبرت نفسها. لكنها الآن لا تملك جرأة، ولا تقوى على وداع. صمته جعلها وحيدة، في عالم غريب. ذهوله جعلها خائفة. تراكم الخوف سريعًا، طبقات فوق طبقات، كافحت حتى تظل فوق الخوف، لكنه سرعان ما دفنها، تشبثت بيد حبيبها، لكنه سحب يده، وتركها وحيدة. كان وطنها، وكان خائفًا. لمن تلجأ إذن؟

كانت اللوحة تلح على عقلها كوسواس. كانت ترى نفسها داخل اللوحة، وترى طرف ثوبها بين فكي وحش، لا يريد أن يفلتها، رغم الرعب الذي يرتسم على وجهها. شعر بالدقائق تمر صامتة فالتفت إليها، أراد أن يتخطى حواجز الذهول، كان يجدر به أن يستقر على رأي نهائي، أهذه ليلة وداع؟ لكنه لم يستطع.

قال لها في محاولة لكسر الصمت:

ــ رحمة، ألا ترغبين في زجاجة عصير من هذا الكشك القديم؟

تنفست الصعداء وهي تومىء بالإيجاب، فقال:

ــ سآتي بزجاجتين، ماذا تريديها؟

ــ تفاح.

قالتها همسًا فعبس مفكرًا:

ــ أتراهم كانوا يدرسون لنا النظريات الخاطئة؟!

استفهمت وهي تبتسم فمضى يقول:

ـــ لقد أخبرونا أن الشحنات المتشابهة تتنافر، وها أنت تهدمين هذه النظرية عندما تطلبين تفاحًا.

ضحكت مشرقة:

ـــ كفاك غزلًا بالنظريات الفيزيائية، فأنت تهدم كل يوم نظرية من أجلي.

ـــ وأهدم كل العلوم من أجلك.

ـــ أتريد أن نعود إلى البدائية؟

ـــ لقد أعادتنا إليها داعش بالفعل. انتظري هنا حتى آتي بالمشروب.

تابعته بنظرها، لم يكن هو، شيء خاطئ في ملامح وجهه، شيء مصطنع. أم أن هذا إسقاط نفسي من جانبها؟.. إن كان كذلك فمن الجيد أنها تختبئ خلف هذا النقاب.

رأته من بعيد وهو يضع هاتفه على أذنه، ناظرًا إليها. ثم انتفضت وهي تسمع صوت الرنين. أخذت تفتش في حقيبتها عن الهاتف، وسط الأشياء الكثيرة التي تحملها. رأت رقمه على الشاشة. أجابت فجاءها صوته:

ـــ لم أجد تفاحًا، آتي ببرتقال؟

ضحكت في أسى لم تفهمه:

ـــ يا حبيبي لم تكن بحاجة إلى اتصال، فكل ما تأتي به جميل.

وأتى بالزجاجتين فوضعت زجاجتها في الحقيبة، للذكرى الأخيرة. وقبض على زجاجته بيده. لن يستطيعا أن يشرباهما معًا كعادتهما، أن يبدلاهما كل قليل، حتى تشرب من

موضع فمه، ويشرب من موضع فمها، فهذا ليس مناسبًا للنقاب، وليس مناسبًا لــــداعش.

المقابلة كلها لم تكن مناسبة لأي شيء. لكن.. كان لا بد أن تقابله، فقد بقي من أجلها، ولم يرحل مع أمه وأخيه. أينوي خطبتها من أبيها ثانية؟ إن لم يكن هذا ما ينويه فلماذا بقي؟

أليست هذه ليلة الوداع؟.. لماذا تفكر بهذه الطريقة إذن؟.. لقد كان حبها له ثورة على كل شيء، لكن ثورتها قد أجهضت إلى الأبد. فحتى لو تزوجها، لن يكون سجنه أفضل من سجن أي مجاهد داعشي.

ووجدت نفسها تقول:

ــ جلال، أن أكون خادمة تحت قدميك، خير لي من أن أكون زوجة "سيف الحق".

خفق قلبه بعنف، أراد أن يخبئها بداخله، شدد قبضته على الزجاجة التي لن يفتحها:

ــ لو كان بيدي لجعلتك ملكة العالم، لكن ما الذي سيجعل أباك يغير رأيه؟.. إن"سيف الحق" هو ذراعه اليمنى، هو قبضته.

تمردت نبرتها وهي تتساءل:

ــ لا أدري لماذا يرفض شخصًا أرغب به؟

فتمتم قائلًا:

ــ لأن الرغبة حرام.

فقدت أعصابها:

ـــ ماذا ستفعل إذن؟.. لماذا قابلتني ولماذا لم ترحل مع أسرتك؟!

ـــ هل كان يسعدك أن أرحل مع أسرتي؟!

ـــ لم يكن ليسعدني بالطبع، ولا يسعدني أيضًا أن أراك هكذا.

ـــ تريني كيف؟!

ـــ خائفًا، مضطربًا، متذبذبًا.

طعنته في قلبه، اتسعت عيناه وهو يمسك بيدها:

ـــ أنا خائف عليك، أنت نقطة ضعفي الوحيدة في هذه الحياة.

فسحبت يدها:

ـــ لا أريد أن أكون نقطة ضعف أحد.

شعر أنها بعيدة جدًا، لن تفهمه. كيف يقنعها أنه ليس بطلًا أسطوريًا؟!

ـــ لقد تأخرت وأريد العودة إلى منزلي.

ـــ اصبري قليلًا فنحن لم ننه حديثنا.

ـــ لا أريد التأخر أكثر من هذا. أريد العودة قبل أبي.

وتوجهت ناحية الجسر فتوجه معها، كانت الأمور قد خرجت عن سيطرته كليًا. شعر أن هذا استفزاز أنثوي، متعمد وبلا هدف محدد.

وشعر بالندم لأنه لم يستقر على شيء. كان لابد أن يراها أولًا، ليعرف هل تغيرت كثيرًا؟ هل هناك جديد في بيتها؟ هل استسلمت أم لا زالت تقاوم؟.. كان لابد أن يرى بعينيه قبل أن يفكر ويستقر، قبل أن يقرر.

كان كل شيء قد حدث سريعًا. أخذت البلدة على حين غفلة منه، قامت المعارك وتعرض كل شيء للدمار، نزح الكثيرون وخضعت ليكوبوليس تحت سيطرة داعش. وكان من السهل جدًا أن يكسب أبا بكر القاهري. إذا انضم للمجاهدين، وإذا وضع مكتبه الإعلامي تحت تصرفه، فيدافع عنه، ويمجد سلطته. بيد أنه لم يقبل الصفقة، ولن يقبل.

لقد كانت المأساة هي أن الباطل واضح معروف، يظهر بألف وجه، ولم يكن للحق وجه واحد. كانت المدينة تضج بالأشرار، والسفاحين، والغرباء، والأشقياء. وكان الأخيار معدودين، وكانت رحمة منهم، لكنها الآن بعيدة جدًا.

ناولها زجاجته قائلًا:

ــ احتفظي بهذه.

فانتزعتها منه.

ــ لماذا تتصرفين هكذا؟!

لم تجبه، اتسعت خطواتها. لابد أن تعتمد على نفسها في هذه الحياة، لكنها ــــ ويا للأسف ــــ لن تستطيع فعل شيء. ما عادت تطيق شعور التمرد العاجز، ما عادت تطيق كيس الخيش الذي وضعت فيه، منذ ميلادها، وأغلق عليها برباط محكم.

الشعور بالعجز لم يتمكن منه. لكنه كان بحاجة لأن يفكر، لأن يفهم، لأن يسلم زمامه لعقله كما اعتاد دائمًا. شعر أنه سيفقد إنسانيته بفقدانها. لم يتقبل الفكرة. امتلأت نفسه بالتحدي، لكنه كان قليل الحيلة. لقد قضى عمره في هذه البلاد يحاول الحفاظ على نفسه من القذارة، قضى حياته غاضبًا، وكان ينفس عن غضبه من خلال عمله الإخباري، ومن خلال مشاركته في الاحتجاجات. وها هو كل شيء يرتد في وجهه، وها هو يفقد اليقين. هو الآن سجين في هذه البلاد، ولا يقين لديه سوى قلبه. إنه ما تبقى بداخله من براءة، لا يريد خسرانها.

توقف عن السير:

ــ لن نعبر هذا الجسر.

قالها حازمًا وأمسك بيدها فانقادت إليه. ثم قالت وهي تستشف ملامح وجهه:

ــ إلى أين نحن ذاهبون؟

فرد عليها حازمًا:

ــ لن أسمح لنفسي بخسارتك.

قالت في أسى:

ــ ليس بيدنا شيء، إنه حكم النصيب.

ــ أتدرين ما يجب عليّ فعله الآن كرجل يدافع عن قلبه؟

اتسعت عيناها. كانت فنانة، وكانت تهوى الرسم. منعها أبوها من امتلاك الألوان ورسم اللوحات. لكنها كانت ترسم بخيالها، أسست لنفسها منهجًا في الرسم، وهو

الرسم الذهني. رسم المعاني والمشاعر في الذهن. وكان هذا سببًا في اكتشافها لموهبة رهيبة، وهي قراءة الوجوه. كانت تنظر لوجه أحدهم حتى تزيغ عيناها، فترى صورة ضبابية لا تكشف غير الخطوط الأساسية للتعابير مع العين. ثم يخف الضباب شيئًا فترى أشياء عجيبة. فقد ترى وحشًا في صورة ملاك، وقد ترى طفلًا في صورة كهل.

قررت أن تضم هذه اللوحة إلى معرضها الذهني، رجل يدافع عن قلبه. لم ترد عليه، لم تستفسر منه، فقد أخذت في رسم اللوحة، ولم تنس أن تضع الطريق والليل كخلفية.

قال وهو ينظر إلى الفراغ:

ـــ أن أخطفك وأهرب بك.

لكنه أفاق فجأة من رومانسيته فأضاف:

ـــ ثم أطلب من أبيك فدية.

ضحكت من قوله، لقد أفسد لها اللوحة تمامًا، لكنها قالت في دلال أنثوي قاتل:

ـــ وهل تستطيع؟

فهز رأسه متعجبًا وهو يقول:

ـــ أعلم أنك لن تستريحي قبل أن تريني مصلوبًا أو مذبوحا.

فردت بلهفة وخوف تطرد خيالاتها:

ـــ بعد الشر عليك، لن يحدث هذا، أبدًا أبدًا.

فضغط على كفها وهو يبتسم. يعلم كيف تفكر هذه الفتاة. إنها تظن أن الأمور تتحقق بالتمني الشديد، إنها ترى قصتهما لوحة لا بد أن تكتمل، إنها تؤمن بحبهما. وهل يجدي الإيمان مع الواقع؟

تاها في دروب الأحلام حتى تألمت قدميها. أخذا يتحدثان وكأن الحياة وردية، وكأنهما سيتغلبان على كل شيء. أخذ يثبت لها حبه، ويؤكد على دماره المحقق إذا ما خسرها. طال بهما المسير، تمامًا كالأيام الخوالي، وكأن الحياة لم تنقلب رأسًا على عقب. وأخيرًا قررا الرجوع إلى حين، حتى يفكر ويقدر، لكنهما تعاهدا على الوفاء لآخر رمق.

وعبرا إلى الناحية الأخرى من الجسر. هاهنا زحام وضجيج، أناس كثيرون متزاحمون، قد قرروا ترك المدينة لسبب لا يخفى على أحد، لقد دارت بعض المعارك هنا وحدثت بعض الاضطرابات، الشارع الرئيسي يمتلىء بتجمعات المياه، عرف كل شيء البارحة، لقد انفجرت ماسورة المياه العمومية فأغرقت المنطقة، غرقت المحلات وغرقت المنازل، ارتفعت المياه إلى الركبة، كان طوفانًا بتعبير أحد السكان الذي حادثه. ولم ينس أن ينشر هذه الحادثة على الصحيفة الإلكترونية، ونشر معها بعض الصور التي التقطها في الخفاء. اخترق الرصاص كاميرات كثيرة، وكان العمل الإخباري تحت حكم داعش مغامرة رهيبة، لكنها لم تكن أخطر من مقابلة بنت "الوالي" !

ومر بهما رجل يرتدي زيًا داعشيًا فأطال النظر إليهما. لم يلتفت إليه وحاول التصرف بطريقة طبيعية، لا يوجد ما يلفت النظر أو يثير الفضول، فهي منقبة وهو لم يحلق لحيته منذ أيام. أما رحمة فقد اختبرت الرجل بجانب عينها دون أن تلتفت، فرأت رأسه على هيئة جمجمة فارتجفت. هكذا رأت أباها آخر مرة، فقد كان يمتلك أرواحًا عديدة بداخله، منعتها من النفاذ إلى روحه الحقيقية. شعرت بعين أبيها في عينه، لكنها سارعت

بإغماض عينيها والانفصال مؤقتًا عن العالم، ثم برمشة مفاجئة، قذفت الرجل خارج خيالها.

أخذ جلال يجول بنظره في الوجوه التي يغلفها الخوف، قالت رحمة:

ــ لا توجد عربات والوقت قد تأخر، وعما قليل يرن هاتفي ويأتي من خلاله صوت أبي.

وارتجف حينما أتت على ذكر أبيها، وتذكر صفقته، لكنه قال يطمئنها:

ــ ستأتي الآن عربة بلا شك.

ــ ألا ترى هذا الجمع المنتظر؟ إنهم يملأون خمس عربات.

ــ لا تقلقي يا رحمة، كم الساعة معك؟

وابتسم عندما رأى الساعة التي أهداها لها منذ أكثر من سنة، عندما جعلها تغمض عينيها، ثم أخرج لها الساعة وقال افتحيهما. وكان في غاية السعادة لما رأى فرحتها، ومدت يدها فقلدها الساعة ثم قبل أناملها.

وأفاق وهي تقول:

ــ الساعة العاشرة، لقد تأخرت جدًا.

ولمح جلال فضوليًا ينظر إليهما عن قرب فضاق به. وقرر أن الهجوم خير وسيلة للدفاع:

ــ إلام تنظر يا هذا؟!

اضطرب الرجل لكنه قال:

ــ لا أنظر، ولكنني انتبهت ولفت نظري أنها تقول العاشرة.

ــ وما الذي لفت نظرك في هذا يا هذا؟!

فانطلق الرجل يقول:

ــ إن هذه الساعة مُخرفة بلا شك، فالساعة الآن قد اقتربت من الثانية عشرة.

ــ ماذا؟! لفظتها رحمة في رعب فقال جلال:

ــ أيها الرجل..لا بد أنك مخطيء.

وأخرج هاتفه لينظر فقال الرجل:

ــ ألم أقل لك؟!..كي تصدقني. إن هذه الساعة مُخرفة بلا شك، أولو كانت العاشرة لانتظرنا كل هذا؟..

ــ كفى، عرفنا أن هذه الساعة مُخرفة.. بلا شك!

وأمسك جلال بيدها ومضى، ثم أجلسها على رصيف الشارع، بعيدًا عن تجمعات المياه. كانت لا تزال في ذهولها، جلس بجانبها وهو يقول متعجبًا وغير مصدق:

ــ ولكن كيف وجرس هاتفك لم يرن؟!

وأخرجت هاتفها بسرعة تنظر فيه وما لبثت أن قالت:

ــ يا ويلي يا ويلي.. يا ويلي ويا سواد ليلي.

ــ ماذا؟!..هل اتصل أحد؟

ــ وكيف سيتصل وأنا أضع الخط الذي لا يعرفه غيرك؟!.

ـــ ياللمصيبة.. ضعي الآخر بسرعة.

وأخذ هاتفها ثم أغلقه وأخذ خطها فبدل الخطوط وهي تقول:

ـــ اتصلوا فوجدوه مغلقًا، لا بد أن أبي قد رجع واكتشف أمري، لا أدري ماذا سأخبره.

وأعطاها الهاتف قائلًا:

ـــ اتصلي بهم بسرعة، انتظري، ماذا ستقولين؟

ـــ يا ويلي ويا سواد ليلي.

ووقع نظر جلال على الرجل الفضولي، الذي لا شك لديه في أن الساعة مُخرفة. كان يحادث آخرًا، وهو يشير إليهما، وينظر ناحيتهما. فقام ضائقًا وتوجه إليه. ثم وقف أمامه قائلًا:

ـــ نعم.. ماذا تريد؟

ـــ ماذا تريد أنت؟!

ـــ لقد رأيتك تتحدث وأنت تنظر ناحيتنا وتشير إلينا. لو أردت شيئًا فها أنا أمامك.

فرد الرجل الآخر:

ـــ لا يا أستاذ. كان ينظر ناحيتكم ولا يشير إليكم، وإنما يشير إلى نفق المشاة خلفكم.

ـــ نفق المشاة؟! أيوجد هنا نفق؟!

فرد الرجل الأول:

ــ أنت غريب عن هذه المنطقة "بلا شك"، ألست كذلك؟

قال جلال وهو يقاوم رغبة ملحة في لكمه:

ــ نعم أنا غريب، إلى أين يفضي هذا النفق؟

ــ إلى موقف السيارات العمومي.

ــ وفيم هذا التجمع إذن؟! لسوف أعبر النفق بدلًا من هذا الانتظار.

وهم بأن ينصرف فقال الرجل الأول:

ــ انتظر، أأنت الناصح ونحن المغفلون؟..النفق مقطوع الكهرباء، وغارق في المياه. المشكلة في أن العربات تتأخر، المياه أوقفت الحركة، النفق كان مخرجًا جيدًا لكنه غرق.

ثم صاح قائلًا:

ــ هاهي عربة قد أتت أخيرًا.

وركض الرجلان ناحية العربة، وفي ثوان معدودة، كادت العربة أن تختفي من كثرة الناس حولها، وتزاحمهم عليها. ونظر ناحية رحمة فلم يجدها، وركض ناحية النفق وأخذ يدور ويبحث في ذهول ورعب، وأخرج الهاتف كي يتصل بها، قبل أن يراها تصعد من سلم النفق فأسرع ناحيتها وأمسك بيدها كي يركضا ناحية العربة. لكنها كانت قد أقلعت. نظر جلال إلى الناس فخيل إليه أنهم زادوا ولم ينقصوا، ثم التفت إليها يقول في عتاب هادىء:

ــ ضيعت علينا العربة يا رحمة.

فأطرقت في صمت كئيب فقال لها:

ــ لا عليك، ماذا كنت تصنعين بالنفق؟ آه.. هل اتصلت بأهلك؟

فأومأت برأسها في شرود فقال:

ــ ماذا قلت لهم؟

ــ لابد أن أعود إلى البيت بسرعة يا جلال.

ــ ماذا قلت لأبيك؟ لا تصمتي هكذا، ماذا قلت له؟

ــ قلت له أني عائدة وسوف أخبره بكل شيء.

ــ وبماذا ستخبرينه؟

ــ لا أدري، لا أدري. لا بد أن أعود الى البيت حالًا.

ــ لا تقلقي.

وأمسك بيدها فأحست ببعض الاطمئنان، وأحس بالأسف لما يحدث فقال:

ــ كل هذا بسبب الساعة المُخرفة، والنفق المظلم الغريق.

وصمتا ثم قالت شاردة:

ــ وما أدراك بالنفق المظلم الغريق؟

ــ لقد عرفت من الرجل، وما أدراك أنت؟ وماذا كنت تصنعين بالأسفل؟

ــ رأيت اللافتة ملقاة فهبطت لأرى. ولكني لم أر إلا الظلام فكدت أقع في المياه.

وصمتا فأخذ يجول ببصره بين الناس، ووضعت رحمة رأسها بين يديها. نظر إليها ثم نظر إلى الطريق الذي تأتي منه العربات، نظرة ساخطة لكنها لا تخلو من أمل. وطال الانتظار بلا فائدة. لو أتت عربة الآن فلسوف يستقلها ولو كان حولها ألف شخص. ولمح جموعًا من الناس تنصرف يائسة. لو أتت عربة الآن لكان انصراف هؤلاء فائدة كبيرة.

***

(٢)

قبل ستة شهور

احتدم صراع عنيف بداخله، لقد تعب من العقلانية المصطنعة، تعب من التفتح الزائف، وهاهي ثوريته تتداخل مع انتمائه الديني، في تزاوج كان دائمًا يراه غير مشروع، لكنه اكتشف في النهاية، أنه ضعيف الإيمان. بدليل بقائه على قيد الحياة، في حين راح ثلاثون شهيدًا للمسيح.

انطلق مينا إلى القرية التي اشتعلت بها شرارة الفتنة، بسبب كنيسة تحت البناء، أحاط بها بعض المتعصبين، مطالبين بالترخيص، وعلت أصوات تطالب ببناء مسجد في هذه البقعة.

ذهب بصفته صحفيًا يريد تغطية الحدث، إلا أنه لم يستطع مقاومة إغراء الفتنة، فسرعان ما فقد طور الصحفي المحايد، وتحول إلى جزء منها. ما أسهل الذوبان في الجموع، والهتاف بشعارات رنانة، عندما يسيطر إحساس القوة، ويعلو الصوت المكبوت، يصرخ بكل ما أوتي من قهر، ينفس عن ضغوط الحياة، يحتج على الشقاء الدنيوي، مع رغبة عارمة في القضاء على العدو. والعدو ليس مجرد شخص أو حزب أو جماعة أو طائفة، إنما كلها أشكال يتخذها العدو الرئيسي. العدو شبح لا يمكن الإمساك به، أو تحديد ماهيته، لكن صفاته معروفة، فهو متجبر ظالم، وهو جذر كل

الشرور، ولا يغلبه إلا الاتحاد والفدائية. علا صوته وهو يهتف: بالروح، بالدم، نفديك يا صليب، تداخل الهتاف مع الهتاف المضاد، بالروح، بالدم، نفديك يا إسلام.

اخترقت الرصاصات كبد السماء، كانت كل يد تمسك بسلاح، سرت نيران الفتنة في هشيم القلوب، وامتدت لتشمل القرية بأكملها. تحصن بالكنائس من تحصن، وتحصن بالمساجد من تحصن، ودارت معركة حامية. تورط مينا في هذه الاشتباكات، رغم سلميته المعهودة، وتسامحه، وحبه لأصدقاءه المسلمين. لكن روح الجمع كانت أقوى من تفرده، فسرعان ما ذاب بداخلها، غير أنه لم يمتلك الفدائية التي تؤهله للشهادة، فكان من الجبناء الذين شاركوا في دفن إخوانهم.

لماذا لم تتعقل من البداية؟!.. كيف انجر إلى تلك الفتنة ولماذا نجا؟!.. سالت دماء من الفريقين، لم يقتل أحدًا لكنه رأى الدماء تلطخ يده، سالت دموعه وهو يصلي في كنيسة ليكوبوليس. تشعره الصلاة دائمًا برغبة في البكاء، تثير ألحانها المقدسة أسى عميقًا في نفسه، ذكريات لم يعشها وإنما عاشتها روحه في عصر ما، هنا في ليكوبوليس، في هذه الكنيسة التي امتزج فيها الموت بالتاريخ، وطارت في جنباتها أرواح القديسين.

كان يعمل مع جلال في مكتبه الصغير. كانا من أحب الأصدقاء. زاره جلال يتفقده ويطمئن عليه، استقبله مينا ورحب به في غرفة الجلوس، التي امتلأت جدرانها بصور دينية، بعضها للسيدة مريم وبعدها للمسيح، راقب جلال وهو يحدق إلى الصور، كان يعرف هذه العادة في جلال، كلما استقبله في هذه الغرفة، يجده يحدق كثيرًا، ويبدي إعجابه أحيانًا بالفن المسيحي. كان جلال مسلمًا متفتحًا، لا يمنعه تفتحه من الدخول في مناقشات حول الدين، كان يحب فيه بعده عن المجاملات الزائفة، وعن ترديد شعارات الوحدة الوطنية المكرورة. رغم ذلك كان أقرب إليه من أي صديق مسيحي،

فقد كان قلبًا يتسع للإنسانية كلها. قلب بلا تعصب، لا يجد اختلاف الأديان أو الأفكار سببًا كافيًا لاختلاف القلوب، رغم إخلاصه لدينه، وتمسكه بأفكاره.

كان تحديق جلال إلى الصور معتادًا، غير أنه شعر بأمر مختلف هذه المرة، وظل محدقًا ناحية جلال متشككًا. أليس هذا الصديق الحميم من العدو؟! كيف يكون صديقًا وعدوًا في الوقت ذاته؟! هل يبلغ إخلاصه للصداقة إخلاصه لدينه؟ أم هو مجرد براجماتي غبي؟

لكن معرفته به على مدار سنين طويلة، لا تقول ذلك، لقد قدم الصداقة كثيرًا على المصلحة، وحافظ دائمًا على وضوحه وصراحته. شعر بأنه يود اكتشاف جلال من جديد، كما يود إعادة اكتشاف كل شيء، بعد تلك التجربة.

تحدث جلال:

ــ لقد غلت المياه وتبخرت.

ضحك مينا مرغمًا، فقد فهم أن هذه إشارة لرغبة جلال في كوب من الشاي. كان يفهم جميع إشاراته، وكانت الإشارات هواية لدى جلال. قام مينا قائلًا:

ــ حسنًا، سأذهب لصب الشاي.

عادت عين جلال تحدق إلى الصور، كانت الغرفة بسيطة، تحتوي على أريكة وأربعة مقاعد كبيرة، اكتست بقماش بنفسجي اللون، غير مكتب على اليمين فوقه جهاز لابتوب، وقد فرشت سجادة حمراء مزخرفة على الأرض. كان جلال يحب هذه الغرفة، كما يحب كل ما هو غريب عنه ومختلف. فهو عاشق للإختلاف، وكاره للنسخ والتشابه والتكرار، ولم يكن بهذه الغرفة ما هو غريب غير هذه الصور المعلقة على

الجدران. لم يكن ما يدور بباله دينيًا، فقد كان إيمانه بحرية العقيدة، كافيًا لعدم انشغاله بتفاصيل اطلع عليها قبل ذلك، ورأى أن الدين ليس مجرد نسق من الأفكار، لكنه تقبل للنفس قبل أي شيء، وتقبل النفس لا يتأتى إلا بتقبل الآخر. ظل محدقًا وهو يفكر في اختلاف الطرق، التي تؤدي إلى نفس النقطة، تباين المخيلات وتباين المشاعر، التي تصب في نفس الاتجاه العام. أما الفتنة فهي لعب شيطاني على الغباء والتخلف، هكذا كان يختصر على نفسه الكثير.

جاء مينا بالشاي، وقد جمد وجهه وخلت عيناه، قال جلال:

ـــ طمئني عليك، ما أخبارك؟

نظر إليه مينا متشككًا، اعتاد جلال هذه النظرة من كثيرين، لكن مينا لم يكن منهم، تعلم من رحمة أن يركز في كل شيء، كان بديهيًا أن يبادله جلال نفس النظرة، غير أنه ظل ودودًا بصدق، قال مينا:

ـــ لم أشارك في التغطية لأن الأمر كان أكبر من ذلك!

ـــ كان حادثًا مأساويًا.

ـــ نعم، سالت دماء كثيرة، وراح أقباط كثيرون.

ـــ رحم الله الجميع.

ـــ كان مخططًا!

ـــ لا نستطيع الجزم بذلك، ولن نعلق تخلفنا على شماعة المؤامرة!

ـــ اسمع مني، كان مخططًا من المسلمين.

ــ ما هذه النبرة الجديدة التي أسمعها منك؟!

ــ هذا ما رأيته!

ــ حتى لو كان مخططًا، لا تقع في فخ التعميم، لست بحاجة للفت نظرك إلى أمر بديهي كهذا!

ــ كان الجميع على قلب رجل واحد.

ــ وأنت؟ ماذا فعلت؟!

صمت مينا، استأنف جلال:

ــ ها أنا أمامك، لم أشارك يومًا في حدث كهذا!

ــ ليس كل المسلمين مثلك، صدقني.

ــ لماذا تحصر القضية في المسلمين؟! ألم تحملوا السلاح وتسقطوا القتلى؟!

ــ كي ندافع عن أنفسنا، ضد اعتداءاتكم!

ــ أرأيت؟! أرأيت كيف يصل الأمر إلى نحن وأنتم؟ بسبب التعميم!

ــ اعذرني يا جلال لست في مزاج معتدل.

ــ عذرك معك يا مينا، سأستأذن الآن، لو احتجتني في شيء اتصل.

ــ لماذا العجلة يا جلال؟ أكمل الشاي على الأقل!

قال وهو يتجه إلى الباب:

ــ أهم شيء أنني اطمئننت عليك، سأتركك لتهدأ، وسأنتظر منك اتصالًا.

ـــ كما تشاء يا جلال.

سار جلال في طريقه إلى المكتب، شاعرًا بضيق شديد. أحس بالتوتر الذي يسود جو المدينة، عندما مر من أمام المستشفى العام، ورأى بعض عربات البوليس. خمن أن بعض المجرمين ممن ساهموا في إشعال الحدث يتلقى العلاج الآن. هل كان مخططًا حقًا؟ لقد جاءته أخبار تشير إلى ضلوع جماعة الجهاد في الأمر. هل كان أي مخطط سيعمل لولا وجود بذور الفتنة في المدينة؟

جاءه اتصال من رحمة، نظر إلى الهاتف وقلبه لا ينبئه بخير، كانت اتصالاتهما قد قلت في الفترة الأخيرة، نظرًا للظروف التي تمر بها، من تشديد أبيها ومحاصرتها، عندما علم بوجود علاقة بينهما. رد على الهاتف فجاءه صوتها الحزين دائمًا:

ـــ جلال، لقد قبضوا على أبي!

ـــ متى حدث؟ ولماذا؟!

ـــ قبضوا عليه اليوم، سيسجنونه يا جلال!

ـــ لا تقلقي يا رحمة، أبوك ليس هينًا.

ـــ يقولون أن له علاقة بالأحداث الأخيرة، لكن لا علاقة له بشيء، صدقني يا جلال لم يخرج أبي من المنطقة.

ـــ اهدئي يا رحمة، سأتابع الأمر، أغلقي الباب عليك أنت وأمك ولا تستقبلا أي أحد.

ـــ لا بد أن نستعين بمحامي.

ـــ سيتطوع الكثيرون لهذه المهمة، لا تحملي هم الأمر وابق على اتصال معي.

ـــ حسنًا يا جلال، اعتن بنفسك ولا تتواجد في أي حدث.

ـــ لا تقلقي يا رحمة.

وانتهت المكالمة. لماذا قبضوا على أبي بكر؟! وأي ورطة وجد نفسه فيها حينما أحب بنت هذا الرجل؟ لماذا اختارها القلب دون غيرها؟ تلك الفتاة الحزينة الرقيقة، كيف أنجبها ذلك المتعصب صعب المراس؟!

كانت مختلفة، ومن طبيعته أن يعشق كل مختلف، أحبها من النظرة الأولى، منذ أن رآها في الجامعة، منفردة بنفسها تحت شجرة، تقف مستندة إلى جذعها، تهيم نظراتها في الوجوه، ثم تلقي برأسها في كراس ترسم فيه ما تراه.

عبر من أمامها غير مرة، كان ينظر ناحيتها فتنظر إليه، نظرة حيادية حتى الألم، ثم يعبر فلا تتبعه بنظرها. كرر الأمر كثيرًا فلاحظ نفس الملاحظة، أثارت فضوله رغم كرهه لأن يكون فضوليًا. في البدء ظنها تنظر إلى الفراغ، كانت أخلاقه لا تسمح بمضايقتها، لكنها شغلت عقله، أراد أن يعرف سر هذه النظرة، أهي جرأة أم براءة؟ أم مزيج منهما.

وماذا عن هذا الكراس؟! ما الذي تخطه أو ترسمه؟ وعبر من خلفها مرة، فوقع نظره على الكراس، وقد رسمت فيه العابرين، لكنها غيرت الكثير في ملامحهم، فبعضهم قد صار قبيحًا لدرجة لا تحتمل، ونبت قرنين في رأسه، وبعضهم قد تحول إلى ملاك بأجنحة. وقد كتبت في أعلى الورقة: ملائكة وشياطين!

انتبهت إليه، فسارعت بغلق كراسها، ثم أرادت الذهاب دونما كلمة، قال جلال:

ــ رائعة تلك الرسومات، لكنك في الحقيقة لا ترسمين إلا نفسك!

توقفت رحمة، ثم وجهت إليه نفس النظرة المحيرة وهي تقول:

ــ فعلًا.. معك كل الحق!

ــ هل يحق لى أن أعرف كيف رسمتيني؟!

ــ لا يحق لك بالطبع، فأنا لم أرسمك بل رسمت نفسي!

ــ يبدو أنني كنت مرآتك السيئة!

لكنها تركته ومضت، شعر بنغزة في قلبه، هل كان مرآتها السيئة فعلا؟! لماذا كان حادًا معها لهذه الدرجة؟ يبدو أن فكرة التصنيف ضايقته، لاسيما أنه تصنيفًا غاية في التطرف، ملائكة وشياطين؟!

لكن عيونها نفذت إلى قلبه، جمالها الحزين خاطب شيئًا بداخله، أخذ يفيق نفسه، لن ينعتها بالملاك، حتى لو أراد قلبه ذلك. لابد أن لها وجهًا آخرًا هو مصدر كل هذه الإسقاطات النفسية. لكنه انتبه إلى خاطر طرق رأسه، لماذا لا يكون هذا فكر الشيطان؟! يريد أن يوهمنا بعدم وجوده وهو خلف كل شيء. هل غلبه جانبه القبيح، حتى رأته هذه الملاك على حقيقته فصورته؟.. لكن كيف يعرف الصورة التي رأته فيها؟! هل رأته شيطانًا أم ملاكًا؟

شعر بالضجر الشديد، هاهو يشغل عقله بما لا طائل من وراءه، ويخلق أسئلة من العدم كي يستمر في بحثه الأبدي عن الحقيقة! لكن الأمر مختلف هذه المرة، فهو يشعر بصدق هذه الفتاة، قد تكون ملاكًا حقيقيًا أرسل من السماء، حتى يعطيه كل الأجوبة، لابد أن يعرف كيف رسمته، لابد أن يعرف.

أخذ يراقبها، عرف أنها تدرس في كلية التجارة، وعرف القاعة التي تحضر فيها على الدوام. كان نظره دائمًا على الكراس، سواء كان في يدها، أو في الحقيبة. أخذ يفكر، هل يطلب منها رؤية الكراس؟.. سيوقعها هذا في الحرج، ويسبب له إحراج أكبر، أيأخذ الكراس دون علمها؟.. أيأخذ الحقيبة بما فيها؟.. لكن هذا يجعل منه سارقًا. ظل في حيرة كبيرة، حتى جاء يوم ووجدها في الكافيتريا، تجلس وحيدة على أحد المقاعد. اختار مقعدًا في محيط نظرها وجلس عليه، وتصنع النظر بعيدًا، وتشاغل بهاتفه وأخذ يسترق النظر، لا شك لديه الآن في أنها ترسم الكافيتريا، وسوف ترسمه بالتأكيد، كيف سترسمه؟ هذا ما يود معرفته، لا بد من تحين الفرصة المناسبة.

ثم جاءته فكرة، تحتاج بعض الفضول والتطفل، مع بعض الحظ. فكر أن يقوم ويترك المكان، ثم يأتي من الاتجاه الآخر، فيسترق النظر فيما ترسمه دون أن يلفت نظرها. سيكون موقفه ضعيفًا هذه المرة، أضعف منه في المرة السابقة، لكن فليحدث ما يحدث، يريد المعرفة بأي ثمن. لكنها مسألة توقيت، لا يجدي القيام دون أن ترسمه، ولا يجدي أيضًا التأخر حتى تقوم قبله!

وظل جالسًا يسترق النظر بين حين وآخر، حتى رآها تنظر ناحيته، لابد أنها ترسمه الآن، لابد أن دوره قد جاء، كيف سترسمه؟.. وما حجم ولون القرون التي ستضعها فوق رأسه؟.. وهل سترسم في نفس الموضوع أم سترسم موضوعًا آخرًا غير ملائكة وشياطين؟.. قد يكون مثلًا: جبناء وشجعان. ماذا لو تخيلته شجاعًا جسورًا؟.. كيف سترسمه؟.. لكن ماذا لو تخيلته جبانًا رعديدًا؟.. كل شيء محتمل. وقد يكون الموضوع مثلًا: ذئاب وثعالب، وفي هذه الحالة يفضل ألا ترسمه من الأصل!

استرق النظر ثانية، لقد تحول نظرها عنه، هذه الآن فرصته، انتهت من رسمه وجاء وقت الحقيقة. قام واتجه إلى الخارج، دار سريعًا حول المبنى، دخل من ممر ضيق حتى انتهى إلى الكافيتريا، فوجد أنها قد قامت ومشت حتى وصلت إلى المخرج. مشى خلفها وحاول فتح فمه، غير أنه تراجع في النهاية.

ما العمل الآن؟ يريد صرف هذه الفتاة من رأسه، ويخشى من أن يسبب له هذا الأمر أي مشاكل، لقد كانت كل هذه التصرفات تحمل من الجرأة الكثير، فعلاقة الشباب بالفتيات في ليكوبوليس شبه محرمة، والتعامل بين الجنسين يتم في أضيق الحدود. بدأ اليأس يتسلل إليه، أراد أن يستعيد عقله، وألا يلهث خلف إسقاطات نفسية، لفتاة قد تكون مجنونة. تشاغل بالدراسة حتى يصرف الأمر عن رأسه، ولم يعد يمر من أمامها. كف عن مراقبتها، حتى قارب على النسيان. لكنها كانت تخطر على عقله بين الحين والآخر.

أخبرته فيما بعد أنها كانت تعلم كل شيء، كانت تشعر به وهو يراقبها، وتراه وهو يلاحقها، وكانت تعلم أيضًا أنه يريد كراسها بأي ثمن، لذلك فقد أخذت حذرها جيدًا. واعتادت على ملاحقته ومراقبته فشغل عقلها. ورسمت له الكثير من الرسومات. وعندما يأس منها أخذت تبحث عنه، حتى جاء يوم تصادف مروره من أمامها، وهي جالسة على أحد مقاعد الحديقة، فقامت وتركت كراسًا على المقعد، ثم التفتت من بعيد فرأته قد أمسك به يتصفحه. نظر إليها فأدارت وجهها ومضت، وظل قرابة شهر يبحث عنها بلا جدوى.

كان الكراس قد امتلأ برسومات تخصه وحده، بدا له أن هذه الفتاة تعشقه، فقد تخيلته في صور رائعة، بعضها يخلب اللب، وبعضها يثير الضحك الشديد، لقد كانت رحمة ولا زالت، فتاة استثنائية.

ثم رآها أخيرًا في فترة الامتحانات، وأراد أن يحادثها قبل أن يسيطر عليه شعور بالرهبة. لقد نسي جميع أسئلته الوجودية، وأجلها إلى أجل غير مسمى. وصارت كل أمانيه تلك النظرات القليلة، التي يتبادلانها كل يوم. وقضى أجازة نصف العام يتقلب على الجمر، لكنه عاد إلى الدراسة أجرأ مما كان، فلما رآها فرد جناحيه وطار في السماء، ثم حلق فوقها في حلقات دائرية، فنظرت إليه وابتسمت، فنزل على الأرض أمامها، وصارحها بكل شيء.

***

في مبنى الأمن الوطني، جلس الضابط شكري أبو ضيف خلف مكتبه، يغلي الدم في عروقه، ووقف أمامه أبو بكر، ينظر إليه بوجه جامد. كان شكري غاضبًا بسبب تلك الأحداث الأخيرة، فقد كان يراها مخططًا من جماعة الجهاد، ويشك في انتماء أبي بكر إلى تلك الجماعة. اعتبر شكري هذه المعركة معركة شخصية، فهؤلاء المتآمرون يريدون خلعه من مكانه، وهدم الجهاز. كانت مخاوفه تهاجمه بين الحين والآخر، فيقف في النافذة، يتخيل الجموع وهي تقتحم المبنى، وتحرقه وهو بداخله. ثم يتخيل أفراد الجماعة وهم يقبضون عليه، وينهالون بالضرب فوق رأسه. بينما المبنى يشتعل وهم

يجرونه إلى الخارج، ثم يجتمعون حوله يمزقون لحمه وهم يستجوبونه، فيصرخ من الألم والكاميرات تصوره.

ألح هذا السيناريو المخيف على رأسه كثيرًا، كان يحاول طرده من رأسه، وينتبه إلى عمله حتى لا يحدث مثل هذا الأمر، ثم يلح عليه مرة أخرى، فيفكر في خطوات فعالة سيقوم بها إذا حدث هذا. لذلك كان يتحسس سلاحه دائمًا، حتى تحول الأمر إلى وسواس قهري. وكلما هاجمته الهواجس سارع بوضع يده على جنبه، خشية أن يكون قد نسي سلاحه.

نظر إلى أبي بكر بعيون نارية ثم قال:

ـــ ما علاقتك بأحداث الفتنة الأخيرة؟

قال أبو بكر حاسمًا:

ـــ لا علاقة لي.

ـــ وما هذه الخطبة التي ألقيتها؟! تعرف بوجود فتنة فتجعل موضوع الخطبة عن أحقاد النصارى؟! بدلا من أن تساهم في تهدئة الناس تساهم في تهييجهم؟!

حافظ أبو بكر على نبرته قائلًا:

ـــ لقد قلت ما أنا مقتنع به، وكلامي كله بالدين والواقع، لم آت بشيء من عندي.

ـــ أهذا هو الإسلام يا شيخ أبا بكر؟!.. أن تختار توقيتًا حرجًا كهذا لتعلن على الناس درر فكرك؟!

ـــ وماذا كنت تتوقع من مثلي عندما يرى ويسمع عن ذبح المسلمين؟!.. ألم تشاهد الفيديوهات التي انتشرت كالنار في الهشيم؟

انفعل شكري:

ـــ دورك يا شيخ أن تُهدىء الناس لا أن تنساق مثلهم.

ـــ لقد قلت ما يشعر به المسلمون، وكان كلامي متزنًا، بدليل عدم حدوث شغب عندنا، لم أقل للناس اذبحوا واقتلوا، لم أحرض، قلت الحق فأنا لا أتقن النفاق، ولا أتلقى الأوامر.

فقد شكري أعصابه، قام وهو يصرخ:

ـــ أنت أكبر منافق، وأكبر متاجر بالدين، وأكبر محرض، وأكبر متلق للأوامر.

ـــ كلها اتهامات مرسلة.

بلغ غضب شكري إلى درجة جعلت يده ترتعش وهو يتحدث، كانت نبرة أبي بكر الثابتة تستفزه.

ـــ سنرى إن كانت مرسلة أم لا!

رد أبو بكر بعناد:

ـــ سنرى!

اتسعت عيناه:

ـــ ماذا تظن نفسك؟!

وهوى على صدغه بيده. صعق أبو بكر، لم يصدق ماحدث، نظر إليه مستنكرًا، فرفع شكري يده ليهوي بها على صدغه الآخر بظهرها، فأمسك بها أبو بكر ثم دفعه في وجهه. ثار شكري ثورة عارمة، جعلته يرفع قدمه ويوجه إليه ركله في بطنه، وهو يسب ويلعن. فتح الباب سريعًا عن ضابط آخر، تدخل كي يُهدىء شكري وهو غير مصدق لما يحدث، نظر أبو بكر ناحية شكري نظرة متوعدة فاهتاج شكري، لكن الضابط أمسكه جيدًا، ثم سرعان ما امتلأت الغرفة بالعساكر، وتوجه أحدهم إلى أبي بكر وأخذه خارجًا.

قال الضابط الآخر:

ـــ ماذا فعلت يا شكري؟! ليست هذه طريقة عملنا مع شخص كهذا!

ـــ لقد تجرأ على يا حسام، لقد سقطت هيبتي!

صمت حسام وهو ينظر إليه، كان الأمر شائكًا وكانت المدينة مشتعلة. أراد حسام أن يكسبوا أبا بكر لصف الأمن، لكن هاهي كل الوساوس تستقر في ذهنه، لا بد أن يلقن هذا الرجل درسًا. ارتفع صوت شكري:

ـــ لن يرى هذا الكلب النور مرة أخرى إلا على جثتي!

ثم أخرج علبة حبوب مهدئة وفتحها بعصبية وهو ينادي على أحد العساكر.

***

انتهت صلاة الفجر في المسجد الكبير، الواقع في وسط البلد، بالقرب من بيت أبي بكر. كانا يجلسان إلى جوار بعضهما البعض، اثنان من صفوة تلاميذه، سيف الحق وأبو حمزة. رفعا أيديهما بالدعاء وبدأ حوار بينهما، بصوت خافت حتى لا يلفتا نظر المخبرين.

قال سيف الحق:

ـــ لا شأن لك بهذا الأمر نهائيًا، سأتصل بأحد أخوالي فهو يعرف لواءً في الأمن الوطني.

ـــ لكن لا بد من الضغط، لا بد من تنظيم تظاهرة أو اعتصام حتى يفرجوا عنه.

ـــ سيقوم أبو عمر بهذه المهمة، ستكون مظاهرة عفوية من بسطاء الناس، أما لو تدخلت أنت فلن يكون في صالح الشيخ.

ـــ حسنًا، سأنتظر يومين فقط.

ـــ وهو كذلك.

ثم انتهى من الدعاء وقام متوجهًا إلى الخارج.

كان والد سيف الحق ذئبًا من ذئاب المدينة فيما مضى. مدته الداخلية بالسلاح كي يساعدها في الحرب على الإرهاب، الذي انتشر في ليكوبوليس. لكنه سيطر على إحدى القرى هو وعصابته، وأقام امبراطورية لتجارة السلاح والمخدرات، فدبت الخلافات بينه وبين الشرطة. ثم طغى وتجبر فكانت نهايته السقوط. لم يستطع سيف

الحق محو صورة والده من ذاكرته، وهو يتفادى الكاميرا في تحقيق المذيعة معه، قبل الحكم عليه ثم إعدامه.

تخلى الجميع عنه، وهجره الاصدقاء. شعر بالخيانة، عرف الناس على حقيقتهم، تحول من أمير إلى صعلوك. لم يكن لديه أصدقاء بل كان لديه عبيد، تركوه وراحوا يبحثون عن سيد آخر. فترك القرية بلا رجعة، هاربًا من العيون الشامتة. وذهب إلى المدينة للدراسة، وأقام بها. لم يكن ذلك الضعيف الذي يقبل التحطم بسهولة. أقسم على أن الدنيا ستعود إليه راكعة، شاءت أم أبت. كان ناقمًا معذبًا، أقسم على أن يذيق أعداءه مما ذاق، أن يسقيهم من نزف جراحه، أن يجعلهم يشتهون اليأس كما يشتهيه، يكرهون الأمل كما كرهه. أقسم على أن يذيقهم طعم الندم، وأن يذيقه طعمهم.

شعر بحماقته إذ كان لديه آمال من قبل، بغباءه إذ صدق أن السعادة لها وجود. أراد أن يواجه قدره في معركة خاسرة مثل أبيه، لكن حتى هذه لم ينلها. صار الناس أغبياء مثيرون للرثاء، واعتبر ضياعه قوة خارقة، فلم يعد خائفًا من شيء، ولا على شيء. صارت الحياة أحقر شأنًا من أن تغويه.

ظلت روحه ممزقة، ظلت جراحه تنزف، حتى تقرب من أبي بكر القاهري، وتاب على يديه، فأعطاه كنيته، وأعاد له روحه الممزقة، بعد أن أوشك على الانتحار. حل أبو بكر محل أبيه في قلبه، خضع لسلطته المعنوية، فعاد إليه شعور القوة.

وأما أبو حمزة فقد كان ينتمي لعائلة جهادية، انتشر أفرادها في جميع أنحاء العالم، وكان تقربه من أبي بكر شبهة ومظنة، رغم أنه بلا ملف جهادي عند الحكومة، كان مدرسًا مستقيمًا، قربه أبو بكر لقوة اِلتزامه. لكن شقيقه أبا حفص كان قياديًا في جماعة الجهاد، وقد قابل أبو بكر غير مرة، فأعجب به كثيرًا وطلب منه الانضمام كمفتي للجماعة.

غير أن أبا بكر كان يعتذر منه لشدة انشغاله بنشر العلم، وكان أبو حفص يتفهمه ويعذره.

لم يكن أبو حمزة ذئبًا بل كان ثعلبًا، استطاع الحفاظ على سرية اتصالاته، التي امتدت إلى خارج البلاد، منذ أن ذهب إلى الخارج في إعارة، وعاد محملًا بالأموال والخطط، وتقرب من أبي بكر كي يستخدمه لغرض في نفسه، لكن أبا بكر استطاع فهمه.
وبدأت الشكوك تساور أبا حمزة، قبل أن تتحول علاقتهما لمناورة ممتدة، فقد اتفقا بغير اتفاق، على الهدف النهائي.

كان أبو بكر يعلم كل شيء عن أبي حمزة، ماعدا معلومتين تافهتين، الأولى هي أنه ملحد، لا يؤمن بالله. والثانية هي أنه عميل مخابرات داعشي. لم يكن أبو حمزة مخلصًا لفكرة ولا لكيان، ما عدا كيانه الشخصي. وكان متأثرًا في نظرته للعالم بفلسفة نيتشة، فالإنسان ما هو إلا كائن يبحث عن القوة، لذا فقد كان يعبد القادة الأقوياء، ويود أن يصير واحدًا. وكان يرى أن الوصول إلى السلطة والحفاظ عليها هو الأولوية المطلقة، حتى لو جاء هذا على حساب كل القيم والأفكار، فما تلك القيم إلا حيلة للضعفاء في مواجهة الأقوياء. أما الأفكار فهي شأن الأتباع وليس القادة. وقد وجد قوته في الذكاء وحرية الحركة، التي لا يقيدها الله، أو تحدها أيديولوجيات، تصنع من الإنسان كائنًا أبلهًا غبيًا، يثرثر بكلام بلا معنى.

وكان سيف الحق يرى أن أبا حمزة هو صاحب الكلمة النافذة في جماعة الجهاد، وأنه الأمير السري المتخفي تحت عباءة التلميذ، لم يحادث أبو بكر في هذا الأمر من قبل، كان يقاوم شعورًا بغيضًا في قرارة نفسه، تجاه أبي حمزة.

أما أبو عمر، فقد درس الحقوق. وكان هو وآخر يدعى الشيخ خالد من تلاميذ أبي بكر المقربين، يساعدانه في تحضير الخطب والدروس، والقيام بالأبحاث، وتنظيم الجداول.

اضطلع أبو عمر بمهمة تنظيم التظاهرة، وانطلقت الحشود بعد صلاة الظهر تجاه مبنى الأمن الوطني، وكلما تقدمت في المسير ازداد عددها، وأخذت الهتافات الطائفية ترج أرجاء وسط البلد، وارتفعت اللافتات التي تشير إلى أبي بكر بوصفه أسد الإسلام، وإلى من حبسوه بأنهم أعداء الدين. وتلقى الضابط شكري اتصالًا من أحد اللواءات، يأمره بإنهاء هذه الفوضى قبل أن تشتعل الفتنة من جديد.

***

دخل مينا مكتب جريدة ليكوبوليس، الأسبوعية المستقلة، ممسكًا بأحد النسخ الورقية، من عددها الصادر هذا الصباح. تخطى بهو الاستقبال ودخل إلى إحدى الغرف التي يجلس بها جلال، وبجواره محمود شريكهما في العمل. وضع أمامه الجريدة وهو يشير إلى صورة أبي بكر في الصفحة الأولى:

ــ صورة أبي بكر تتصدر الصفحة الأولى؟! هل صرنا جريدة طائفية يا جلال؟!

قال محمود:

ــ أين الطائفية يا مينا؟! الخبر منقول بمنتهى الاحترافية والحياد!

ــ وهل هناك حياد مع المجرمين؟!

رد جلال:

ــ منذ متى ونحن نصدر أحكامًا على متهمين، أبو بكر لم يعرض أمام محكمة!

ــ كانت هناك أخبار أهم كي تتصدر الصفحة الأولى، لكن يبدو أن الجريدة صارت تستخدم لأغراض طائفية!

صاح محمود:

ــ ما هذا الذي تقول يا مينا؟ لقد فقدت عقلك!

ــ أقول رأيي يا محمود، وليس غريبًا أن تقف في صف جلال، فلم تقف في صفي يومًا.

ــ لالا، لن أتحمل أكثر من هذا.

وقام متوجهًا إلى الخارج. قال جلال:

ــ أنت تعرفني جيدًا يا مينا، والقراء يعرفون جريدتنا جيدًا.

ــ جريدتنا؟! بدليل نشرك لهذا الهراء دون أي اعتبار لرأيي.

ــ أنت مجهد يا مينا، مرورك بالأحداث لا زال مؤثرًا فيك.

ــ أنا من شهد بعينيه، أنت لم تر شيئًا.

ــ لا بأس، اكتب شهادتك، لماذا لا تكتب؟!

ــ سأكتب يا جلال.

وتركه ومضى. تنهد جلال من الضيق، أمسك بالجريدة وأخذ يقرأ. الكلام في منتهى الحيادية، لكن قد يكون مينا محقًا، فتصدر هذا الخبر دون غيره يحمل الكثير من المعاني. قد يظن أحدهم أنه توجه طائفي، وقد يظن آخرون أنه لعب على السوق، بدليل ارتفاع توزيع الجريدة في هذا اليوم، وقد كان هذا هو السبب وراء موافقة محمود له على هذا الأمر. لكن أحدًا لن يعرف السبب الحقيقي. هل يتعارض القلب مع الضمير أحيانًا؟! هل خفت صوت ضميره عندما تحدث قلبه؟!

وفي اليوم التالي تلقت أم رحمة اتصالًا من سيف الحق، أخبرها أن أبا بكر سيبيت في منزله هذه الليلة. تهللت أم رحمة وهي تخبر ابنتها، فرحت رحمة كثيرًا بالخبر، فاتصلت بجلال كي تخبره.

قرر جلال ألا يكتب عن أبي بكر أي شيء آخر، وأن يترك متابعة هذه القصة لمحمود ومينا، فلا يصح استخدام رحمة كمصدر للأخبار. وقد يكون امتناعه سببًا في تخفيف التوتر بينه وبين مينا.

***

(٣)

في فترة الشباب كان لا يبدأ بالعدوان، لكنه تورط في معارك أكبر منه، كان جريئًا، وكان في المقدمة دائمًا، يقف مع الحق أيًا كانت العواقب، لا يرضى بالظلم ولا يقبل به، وقد يواجه الشر بالشر كي ينحسم!

وفي إحدى المعارك تخلى عنه الجميع، كان محاميًا متطرفًا في نزاهته! ورث هذا عن أبيه، فقد كان قاضيًا في إحدى دوائر القاهرة، رفض تزوير الانتخابات، فصدر قرار بنقله إلى الصعيد، ونشأ أبو بكر في ليكوبوليس فصارت مهده ووطنه، ودرس الحقوق وتخرج بتقدير ممتاز، لكن أباه كان من المغضوب عليهم، وكان هذا عائقًا بينه وبين سلك القضاء، فعمل بالمحاماة، وسار على درب أبيه، فكان يفضح الفساد، ويواجه الفاسدين.

وفي إحدى القضايا وقف ضد ذئب من ذئاب المدينة، وصلته مستندات تفيد بتورطه في قضية استيلاء على أراضي الدولة، بمعرفة عضو البرلمان. لكنه تلقى التهديدات بطرده، واجتمع مجلس تحكيم كي يفض الأمر، فأصر أبو بكر على موقفه، فانشق طريقه عن شرذمة من الكلاب، حطموا سيارته وهو بداخلها. وخسر القضية في النهاية.

مرت عليه أيام عصيبة، لم ير النوم فيها، لم يمسك عن التفكير عقله، لم تكف عن الثوران روحه، كان يواجه جيشًا بأكمله في حرب نفسية رهيبة، يجلس وحيدًا، يحلل

الشخصيات، ويربط الخيوط، يقرر ما سيفعله، الأمر موت أو حياة، كل كلمة لها معنى، كل تصرف له عواقبه، كل تفصيلة تستحق التفكير.

وانجرف إلى الخمر، كان ينعزل عن امرأته، وعن طفلته، وحيدًا في غرفته، يشرب القليل الذي يذهب عنه القلق، ثم يبدأ في التفكير والتخطيط، كان غاضبًا.

وفي إحدى الليالي كان يجري حوارًا مع نفسه فطرقت رأسه فكرة شيطانية، انفعل بالفكرة فقام وخطى خطوتين، رمق ظله في المرآة فتشبثت قدماه، أوقف التعبير على وجهه، واجه المرآة يتأمل هذا التعبير المخيف، ظل واقفًا يتأمل، أبداخله كل هذا الشر؟! أفي قلبه كل هذا العداء؟! ضاقت رؤيته وانحصرت في المرآة، لم يعد ير إلا صورته المنعكسة، لكنها أخذت في التحول شيئًا فشيئًا، حتى استحالت كائنًا مغايرًا، عريض الكتفين أصلعًا، ذا رأس ضخم ووجه مفحم، كان كيانًا مخيفًا، لكنه امتلأ بالجاذبية والكاريزما، كان كيانًا سلطويًا.

أدرك أنه أمام شيطانه، ظل واقفًا أمام المرآة، يتأمل هذا الكائن في تحد وجرأة، حتى كلت قدماه وتبخر المشهد من أمامه. هوى على الأرض، رأسه الآن مرتبة كما لم ترتب من قبل، منظمة، شاملة، كل السبل، كل الخطط، مئات الأفكار. لكن قلبه كان مقبوضًا. هذا شيطانه يعرض عليه صفقة. هل يخطيء خطأ فاوست؟! إنه مؤمن بالله. لو استسلم لشيطانه سيخسر قلبه، سيخسر شجاعته وقوته، وسيتحول إلى جبان خبيث.

قرر أن يعرض عن هذا، عرف طريق المسجد وأطلق لحيته، اقتصر في عمله على بعض القضايا الصغيرة، عكف على الدرس، أعطى الدين كل وقته، وهب لله نفسه، مرت سنينه في الطاعة، أنفق عمره في خدمة الكتاب والسنة، استطاع الحصول على عدة

شهادات دعوية، وقضى أيامه كشيخ جليل بين المساجد، كل يوم في مسجد، يلقى دروسه، وخطبه، يتتبعه مريدوه أينما حل، يغترفون من علمه دون كلل.

صار له طلابًا يكادون يقدسونه، صار له أعداءً يهابونه. كثرت علاقاته وذاع صيته في المدينة، لكن الشيطان كان له بالمرصاد، حاول أن يسلسله، لكنه لم يستسلم. أخذت الطرق تتفتح أمامه. صمد أمام كل غواية، اكتشف كل مكيدة، فهم كل فخ، كان أذكى من شيطانه، لكن يا ليتها معركة ذكاء.

الفخ الذي فهمه جيدًا لكنه خطا إليه بقدميه، كان فتنة، جارته الوحيدة، التي تسكن في الدور الأول. كان يعرض عن جميع النساء، من الخشية ومن الخوف، كل امرأة تعجبه يفتح الشيطان له طريقًا، لكنه لم ينجرف.

وحدها فتنة هي من احتلت جزءًا من تفكيره، كان يدرك أنه على شفا حفرة، ومع ذلك لم يسحق أفكاره في مهدها، اتخذ الأمر مجرى التحليل، وحاول أن يبقيه في هذه الحدود.

كانت حربه مع الشيطان تقتضي أن يسد جميع مداخله ومنافذه، كان يرى الشيطان في أبسط الأشياء، ينظر إلى أحدهم فيعرف إن كان قرينه هو من يسوقه. ومرت عليه فترة توجه فيها إلى علاج الجن والعفاريت، فنجح نجاحًا منقطع النظير، واتبع قاعدة سحرية، وهي ألا يصطدم مع عقيدة المريض حتى يستطيع علاجه، ومع الوقت عمم القاعدة، وشيئًا فشيئًا حول الأمر إلى سيطرة، ثم إلى حرب على الجواسيس، وقد شن حربًا على سليمان المخبر فتلبسه الشيطان، وجاء بنفسه إلى أبي بكر كي يعالجه، فأذاقه ألوانًا من العذاب.

وكان أحد القسيسين في المدينة يعالج الجن أيضًا، ويذهب إليه في الكنيسة مسلمون ومسيحيون، فتطورت المعركة إلى حرب طائفية بين الجن المسلم والجن المسيحي، لذلك فقد كان أبو بكر يحرص كل الحرص على إسلام الجن قبل أن يخرجه من المريض.

أما عندما نشبت الفتنة فلم يكن له يد فيها، لكنه كان يكره المسيحيين، لأنهم غير مسلمين أولًا، ولأنه يرى أنهم جذر كل شر في ليكوبوليس ثانيًا، كانت يزعجه ذلك الانتشار للمسيحيين في المدينة، ويزعجه أكثر سيطرتهم على بعض مجالات الاقتصاد بها. وزعمهم أن البلد بلدهم، وأن المسلمين ما هم إلا ضيوف بها في أحسن التعبيرات، أو مستعمرون لها في أسوأها.

ورأى بعض الفيديوهات ففقد صوابه، وألقى خطبته، فقبض عليه، وتعرض لأسوأ إهانة مر بها في حياته، فقد أطلق عليه شكري عساكره يصفعونه ويجذبون لحيته، ويبصقون عليه، مع سيل من الشتائم والسخرية. كان الهدف هو كسر كبرياءه دون تعريضه لأي نوع من أنواع التعذيب البدني، الذي قد يتسبب في إصابته بإصابات ظاهرية، كان تعذيبًا نفسيًا، وقد نجحوا في مهمتهم.

وكانت صدمة هزت أركانه، وعاد من مقر الأمن الوطني وقد فهم الكثير، إن جند الشيطان يحتكرون السلطان، وجند الله مضطهدين، لقد سار في الطريق الخطأ، وفات وقت تصحيح المسار.

قضى الأيام التالية شاردًا، لم يشعر به أحد، تذكر صدماته السابقة، الناس هم هم، يضحكون ويمرحون، وكأن شيئًا لم يكن! صار يمشي وحيدًا في الليل، شاردًا يتأمل، انقطع عن الصلاة، وكف عن مقابلة تلاميذه، كان عقله مهمومًا بالسلطة التي يحتكرها جند الشيطان، وكان قلبه وحيدًا، معزولًا عن الحياة.

لقد ولى شبابه فجأة، وعمره الذي أنفقه في محاربة نفسه، قد ذهب هباءً، وهاهي نهايته تمثل أمام عينيه، نهاية مخزية. لو قبل صفقة شيطانه لظفر بحياة تزخر بالمتع، ولصار جزءًا من السلطان الذي يحكم العالم، كانت الفرصة أمامه لكنه أضاعها. ولا سبيل للرجوع بالزمن إلى الوراء.

وفي إحدى الليالي دخل البيت فوجد فتنة في طريقه، واقفة أمام باب شقتها، بجسدها المتمرد داخل العباءة السوداء، ووجهها صارخ الجمال داخل طرحة شفافة، تناديه عيناها نداءً غامضًا، تشعر به، تخبره بما يدور في باله، تستنطقه بحاجبيْها المتسائليْن دائمًا. وكأنها ملاك رحمة بعث إليه. وجد نفسه يخطو إليها. لم ينو الدخول. كان سيستدير إلى درج السلم في اللحظة الأخيرة، لكنها تراجعت وفتحت الباب له. لم ير شيئًا إلاها، لم يلتفت إلى شيء، ارتمى في عالمها حتى نسي نفسه ونسي العالم، وأفاق وهو بجانبها على السرير يلهث. نظر إليها فوجد ابتسامة نصر شيطانية، قد تدلت على وجهها. فطن إلى وقوعه في فخ الشيطان. صفعها على وجهها، ولملم ملابسه سريعًا. وخرج من باب الغرفة فوجد تمثالًا، قد اخترق عينه اليمنى خنجر، وسال منها الدم.

دخل في اكتئاب حاد، اعتكف في غرفته، واعتزل عن امرأته وابنته، امتنع عن الطعام والشراب، لقد هزمه الشيطان بعد هذا العمر الطويل. لكن لم يمض الكثير من الوقت قبل أن يجد صفوة تلاميذه يطرقون بابه، فرغم جماهيريته الممتدة في المدينة، كانت له صفوة، يطمئن قلبه إليهم، ويتحدث بطلاقة أمامهم، دون خوف من المخبرين. كانوا أربعة مقربين اختارهم بعناية، وكناهم بنفسه، سيف الحق وأبو حمزة، وأبو عمر وأبو خالد.

استقبلهم في مكتبه الكبير، الملحق بشقته، اتخذ كل منهم مقعدًا بينما جلس أبو بكر خلف مكتبه، تفادى النظر إلى أعينهم وهو يرحب بهم، قال أبو خالد:

ـــ حمدًا لله على سلامتك يا شيخنا.

ـــ سلمك الله يا بني.

لاحظ سيف الحق أن شيخه لا ينظر إليهم على غير عادته، أراد أن يلطف الجو فقال:

ـــ لقد صرت بطلًا يا شيخنا، الناس جميعهم يتحدثون عنك، يقولون أن أحدًا لا يملك جرأتك.

ـــ كان يجدر بي أن أكون حكيمًا، بدلًا من أن أكون بطلًا!

تبادل أبو خالد النظر مع أبي عمر بينما قال أبو حمزة:

ـــ لا عليك يا شيخنا، لقد كنا نحن المقصرون، فلو لم نتركك وحيدًا لما استطاعوا أخذك من بين تلاميذك، لكن من الآن فصاعدًا، ستكون لك حراستك.

ـــ الحارس هو الله.

قال أبو خالد:

ـــ كل هذا من مخبري النصارى.

ـــ المخبرون لا دين لهم.

ـــ ما هم إلا شياطين.

تحدث أبو عمر:

ـــ لا يوجد فرق كبير، الكل في كفة واحدة.

ـــ كفة الأعداء!

ـــ لكننا سننتصر في النهاية!

ـــ البركة فيكم!

تحدث سيف الحق:

ـــ لم تخطىء يا شيخنا في شيء، لقد فعلت نصف ما يفعله القساوسة في الكنائس!

ـــ لكنهم لم يعتقلوا قسيسًا واحدًا.

ـــ ليست الحكمة في السكوت عن الحق.

ـــ الساكت عن الحق شيطان أخرس.

ـــ لن نغير القرآن حتى نرضي النصارى.

ـــ كل الرسل عانوا من الاضطهاد.

ـــ نحن في مجتمع جاهلي.

ـــ يزعمون أننا من نحرض على الفتنة، وقد قال الله "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة".

ـــ أتعرف ما معنى كلمة فتنة في هذه الآية؟.. لقد فسرها أكثر السلف بالشرك.

ـــ أليس النصارى مشركين؟

ـــ مشركون أم أهل كتاب؟!

رفع أبو بكر رأسه لأول مرة، كان يبدو عليه الشرود وهو يقول:

ــ سيكون درسكم اليوم عن الفتنة!

صمت الجميع وأخذ أبو بكر يتحدث. نسي كل شيء، ووجد نفسه يبدع في الاستدلالات والاستشهادات، ويبرع في الاستنباط والاستنتاج، ويورد كل آية في سياقها، وكل مأثور في محله.

عادت إليه روحه شيئًا فشيئًا، وقرر أن الشيطان فاز بمعركة، لكنه لن يفوز بالحرب.

***

عادت حياته إلى طبيعتها، وعاد الى الدين بنظرة جديدة، لم يكتف بالفهم والحفظ ولكنه أخذ يترجم، تعامل مع الدين كنسق فكري، وأخذ يترجم مفرداته إلى نسق حديث من الرموز.

وذات يوم كان يهبط الدرج فوجد سائلًا مسكوبًا. نظر إلى باب فتنة فوجده مواربًا، انطلق ناحيته متفاديًا السائل المسكوب، طرق على الباب فخرجت، سألها والشرر يتطاير:

ــ ما هذا السائل المسكوب؟!

أنكرت معرفتها به.

ــ أنت ساحرة والكل يعلم.

ـــ أنا متعلمة ولا أومن بالأعمال والخرافات.

انتبه إلى شقتها، كانت الصالة مستطيلة، وكان هناك أربعة مقاعد على الجانبين، تتوسطهما منضدة صغيرة، بينما تقف مكتبة أنيقة في الأمام، وبجوارها كان يقف التمثال الذي رآه. توجه إليه فلم يجد أثرًا للخنجر، همست من ورائه:

ـــ لقد كنت فظًا معي.

شعر بالارتباك قليلًا، توجه إلى المكتبة، دار بين الأرفف فوجد كتبًا غريبة، بعضها في الهندسة والفلك، وبعضها في علم النفس، وبعضها في السحر.

أمسك بكتاب أصفر اللون وأخذ يقرأ فيه، وقع من الكتاب ورقة، التقطها فوجدها مخطوطة برموز غريبة، استدار إليها غاضبًا:

ـــ هذا حجاب سحري، صحيح؟ تقومين بالأعمال السفلية؟!

نظرت إليه بأعين قاتلة يلفها الغموض:

ـــ أنا لا أومن بالخرافات.

ـــ ولكنك تروجين لها. دجالة أنت أم مشعوذة؟!

ـــ هذا علم ورثته ولا أستخدمه إلا في الخير، تمامًا كما تستخدم علمك.

ـــ علم؟! لا بأس، علميني إذن!

ـــ هل أنت واثق من رغبتك؟

ـــ وهل لديك شك؟!

خطت ببطء تجاه المكتبة، تابعها بعينيه مترقبًا، استدارت إليه ثم قالت:

ـــ تحتاج سنوات طويلة كي تتعلم أمرًا كهذا، لكني سأعطيك مقدمة حتى يطمئن قلبك.

أمسكت بقلم وورقة واستندت على المنضدة، رسمت له خطًا عموديًا وسمته الروح، ثم خطًا أفقيًا يتقاطع معه، وسمته المادة، وضعت علامتي الموجب والسالب على طرفي الخطين، أغلقت أطراف الشكل بقطع مستقيمة على هيئة نقاط فصار أربعة مثلثات.
أعطته الورقة وقالت:

ـــ ادرس هذا الشكل، واكتب عنه ما لا يقل عن عشر صفحات من أم رأسك، ثم ائتني.

أخذ الورقة مشدوهًا، لم يستطع النطق.
قالت له تفضل فأنا امرأة وحيدة.
خرج في صمت.

لم ينم تلك الليلة، سود عشرات الأوراق، استدعى كل ما تعلمه في سنوات الدراسة، عن الهندسة والأشكال والنظريات، أخذت المثلثات جانبًا كبيرًا من اهتمامه، أخذ يعبر عن كل فكرة بمثلث، كل مشكلة، كل علاقة. وقسم كل شكل هندسي قابله إلى مثلثات، عن طريق رسم أقطاره، حتى الدوائر لم تسلم من هذا التقسيم. أصابته لوثة المثلثات، واستنتج علاقات عديدة، فسر كل الشعارات والرموز التي يعرفها وفقًا لاستنتاجاته، النجمة المخمسة، نجمة داوود، شعار النازية، النجمة الإسلامية، الصليب.

نضبت معلوماته فقام يفتش عن كتاب في الهندسة، فتش في حقيبة ابنته وأخرج الكتب، وقع كتاب الهندسة الفراغية في يده، حدق في الفراغ طويلًا، ثم أعاد الكتاب كما كان، لن يقع فريسة هذه اللوثة. مزق جميع الأوراق. هذه المرأة تتلاعب به.
أمسك بالمصحف وأخذ يقرأ، محاولًا طرد المثلثات، التي تتتابع أمام عينيه، فتشكل العلاقات، والرموز.
وفي اليوم التالي، وجدها واقفة خلف باب شقتها الموارب. تجنب النظر إليها واستعاذ بالله وهو يمر. سمعها تقول:

ــ ألا زلت راغبًا في التعلم؟

توقف في مكانه، التفت إليها ببطء ثم قال:
ــ وفري علمك لنفسك.

فتحت الباب ووجهت نظراتها القاتلة إليه، رقت نبرتها حتى اخترقت نسيج قلبه:
ــ هل أخطأت معك في شيء؟

نظر إليها متشككًا:
ــ لقد حاولت ممارسة ألاعيبك عليّ، ما الذي كنت تهدفين إليه من هذا؟

فاق انفعالها عصبيته:
ــ لو أردت ممارسة ألاعيبي عليك كما تقول، لما أعطيتك هذا الشكل البسيط، لقد أعطيتك نبذة عن سلطة الرمز، وعن كيفية صناعته. ولو أردت سجنك في دوامة لفعلت. لكن دوامات الأشكال والأرقام والأبراج لا تليق بك.
تكررت لقاءاتهما، كان الفضول هو وقود هذه اللقاءات، وكان هذا حافزًا إضافيًا لالتزامه في دروسه، لتوعية تلاميذه بأسرار الخطر الكبير.

وكان يرى في سيف الحق نفسه وشبابه، ويتمنى لو يعود به الزمن، أو يأخذ شباب سيف الحق. فيفعل به الأعاجيب. وألح عليه هذا الهاجس حتى استسلم له. وفي إحدى

لقاءاته بقتنة حادثها في الأمر، سألها عن سر مظهرها الشاب وحيويتها المتجددة رغم سنها المتقدمة، أخبرها بالهاجس الذي يلح عليه، وهو أخذ شباب سيف الحق، حتى يفعل به الأعاجيب.

قالت إن الشباب شباب الروح، وإن استطعت أن تتلبس شابًا فقد أخذت روحه. قال أنه ليس من الجن كي يتلبس الآخرين، شعرت بغباءه:

ـــ أقصد أن تجعلهم يتصرفون وكأنهم أنت، يفكرون بما تفكر، ويشعرون بما تشعر، فتصير إرادتهم إرادتك، وقوتهم قوتك، فإذا تم لك ذلك، فسوف تجد روحك في كل شيء، وسوف تستعيد قواك الفتية.

ـــ كلام جميل لكن بدون أساس.

ـــ ألا تستخدم علمك في السيطرة والحرب؟ لا تحتاج إلا بعض التطوير، حتى تصير روحًا تتلبس من أمامك.

ـــ طوريني إذن!

ـــ لا تحتاج إلا تعلم الدوائر، التي تستطيع سجن الآخرين فيها؛ فيدوروا بداخلها بلا توقف.

ـــ تركنا المثلثات وأمسكنا الدوائر!

ـــ المثلثات للرموز، والدوائر للسلطة، والسلطة هي الشباب الدائم المتجدد بلا نهاية كالدائرة.

ـــ قولى شيئًا عمليًا.

ـــ العقيدة هي أقوى الدوائر، الأيديولوجية هي أحكم السجون.

ـــ لا أحب الاصطدام بالعقائد، فمن يصطدم بالعقيدة كمن يضرب الحائط برأسه.

ـــ وهذا هو أول الطريق، أن تدور في دائرة من أمامك حتى أقرب ثغرة، فتخرجه من مداره وتأخذه إلى مدارك.

ـــ أتقصدين الإقناع؟ لا يحتاج الإقناع لكل هذه الشفرات.

ـــ ليس الإقناع بالطبع، فالعقيدة ليست أفكارًا فحسب، إن ما أقصده هو الإيحاء.

قال متعجبًا:

ـــ أتعلميني السحر؟!

ـــ السحر لا يكتسب.

ـــ لا تشتتيني.

ـــ ليس تشتيتًا، السحر فيك ولكنك لا تقدسه.

ـــ أقدس السحر؟! أكفر بالله؟!

انفعلت فجأة:

ـــ وهل أتحدث عن الأعمال والدجل؟! لقد أتعبتني معك.

دارت رأسه، شعر بصحة كلامها، فهاهو داخل دائرة إيحاء سجنته فيها، وها هي تسحره. وتجره إلى فخ شيطاني جديد. فاستئذنها دون أن ينظر إليها، وخرج سريعًا.

كثف لقاءاته بتلاميذه، قل ضحكه، زاد تحديقه في عيونهم، كانوا في امتحان دائم لإيمانهم، وخاصة سيف الحق. يحدق في عينيه وهو يتحدث عن الشياطين، يملأه بالشك في نفسه، يشعره بأنه تحت الإختبار. ويمنيه برضاه المقدس.

ورأى فعل السحر، لقد صاروا يحرصون على إرضاءه بهوس، ويقتنصون الفرص لإثبات ولاءهم، لكن أكثرهم حرصًا وإخلاصًا كان سيف الحق. رأى أن هذه السلطة

يجب تمديدها. لمواجهة سلطة الشيطان، حتى يستطيع الحصول على مبتغاه، ثم يلقي بالشيطان في أقرب سلة قمامة. فالحرب خدعة، وكيد الشيطان ضعيف، إذا ما قوبل بكيد أقوى. لقد سمع الكثير عمن ركبهم الشيطان، لكنه سيركب شيطانه، ويلحق به شر الهزائم.

***

رن جرس الباب فطارت رحمة من الفرح، أمسكت بأمها واحتضنتها فضحكت الأم وأشارت لها أن تهدأ، لكن كيف تهدأ وهذا جلال قد أتى أخيرًا ليقابل أباها.

كان مكتب أبيها ملحقًا بالشقة، أو كانت الشقة ملحقة به، فقد كان مكتبًا كبيرًا مارس من خلاله أبو بكر مهنته القديمة، وهي المحاماة، وحتى بعد تحوله إلى داعية، ظل يستقبل تلاميذه وضيوفه في هذا المكتب.

فتح أبو بكر باب الضيوف الخارجي، واستقبل جلال. وقفت رحمة خلف الباب الداخلي، الذي يفصل الشقة عن المكتب، ووقفت أمها بجانبها. كانت فتاة جميلة، رشيقة، امتزج جمالها ببراءة طفولية محببة، وعيون براقة تملؤها الدهشة. وكانت أمها قد قاربت الخمسين من عمرها، لكنها لا زالت تحتفظ ببعض النضارة، التي جعلت مظهرها لا يفصح عن سنها الحقيقية.

رحب أبوها بجلال، وجلس على المقعد خلف مكتبه الكبير، بينما جلس جلال على مقعد أمامه، بعدما وضع علبة حلويات كان يحملها على المنضدة الصغيرة.

وضع أبو بكر ابتسامة على فمه وهو يقول:

ــ أهلا بك يا بني، أردت مقابلتي وأنا ــــ كما تعلم ــــ لا أملك الكثير من الوقت.

شعر جلال ببعض الارتباك لكنه قال:

ــ لن آخذ الكثير من وقت حضرتكم، لقد أردت التقدم لطلب يد كريمتكم.

حدق في عينيه بوجه خال من التعابير، مما جعل جلال يشعر بحيرة شديدة. قال أبو بكر:

ــ ما عملك؟

ــ أعمل في الصحافة.

بدا الاهتمام على وجه الرجل، أضاف جلال:

ــ أدير مكتبًا صغيرًا أنا وبعض الأصدقاء.

زاد الاهتمام على وجه الرجل:

ــ كما ترى يا عمي..

قطب جبينه عندما سمع الكلمة، أكمل جلال:

ــ العمل الخاص أفضل بكثير خاصة في مجالنا.

تساءل أبو بكر:

ـــ وما الذي يجعل العمل الخاص أفضل، لو التحقت بجريدة كبيرة ستكتسب الكثير من الخبرة.

ـــ معك حق، لكني لا أتحدث عن الخبرة، وإنما عن الاستقلالية.

هز الرجل رأسه وقد فهم ما يرمي إليه. سمعا طرقات خفيفة على الباب الداخلي، قام أبو بكر وجلب كوبين من عصير البرتقال، وضع كوبًا أمام جلال ثم رجع إلى مقعده، ونظر إلى التلفاز المعلق على رف في الجانب المقابل. انتبه جلال إلى التلفاز للمرة الأولى، يبدو أنها عادة لدى أبي بكر، أن يترك التلفاز مفتوحًا ويلغي الصوت، أخبرته رحمة شيئًا مشابهًا. تنبه إلى الخبر على الشاشة، استمرار المعارك بين الحلف السني والحلف الشيعي على أرض اليمن، قال جلال:

ـــ تورطنا في هذه الحرب ولا ناقة لنا فيها ولا جمل!

فرد أبو بكر:

ـــ لكننا بلد سنة، وإن لم نتواجد في حلف السنة ففي أي حلف نتواجد؟! حلف الشيطان؟!

ـــ هي حرب على النفوذ والسياسة، وكل طرف يشيطن الآخر.

أحس جلال باندفاعه، تسارعت دقات قلب رحمة وراء الباب، وترقبت أمها.

قال أبو بكر:

ـــ والإعلام له دور في حرب كهذه.

ـــ بالطبع.

صمتنا قليلًا ثم قال أبو بكر:

ــ أتدري عندما كنت محاميًا شابًا، كان أمامي طريقان، أن أكون محامي الشيطان، أو أن أكون محامي الحق. كذلك أرى مهنتك، إما أن تكون خادمًا للشيطان، وإما أن تكون خادمًا للحق.

كان يضغط على كلمة الشيطان مما جعل جلال يظن أنه المقصود.

ــ أعتقد أن هذا ينطبق على جميع المهن، بما فيها الدعوة!

اتسعت عينا رحمة، واتسعت عينا أبي بكر، أحس جلال بالورطة التي أوقع نفسه فيها، سارع موضحًا:

ــ أقصد أن هناك بعض الدعاة ممن يتخذون الدين ستارًا لمآرب أخرى.

زاد اتساع عين الرجل، وضعت رحمة يدها على فمها، بينما أمها تترقب. شعر جلال بأنه زاد الطين بلة، فأضاف قائلًا:

ــ فقهاء السلطان مثلًا، وشيوخ الحكومة، هؤلاء قد اتخذوا الدعوة وسيلة للتقرب من السلطة.

ضاقت عينا أبي بكر ثم قال:

ــ تريد استبدال كلمة الشيطان بكلمة السلطة، وهذا يعجبني كثيرًا.

فضل جلال الصمت، كان الأمر شائكًا، لقد أراد خطبة ابنته رغم عدم اتفاقه معه في أفكاره، لكن رحمة ألحت عليه كثيرًا، أن يجاريه قدر ما استطاع، بيد أنه كان فاشلًا في المجاراة. استأنف أبو بكر:

ـــ نحن متفقان إذن، على أن الشيطان يحتكر السلطة في هذا البلد، ولكن هل نتفق في طريقة محاربته؟!

ـــ اسمح لى يا عمي أن أذكرك بموضوع المقابلة، وهو طلب يد كريمتكم، أستطيع تجهيز الشقة خلال وقت قصير، ودخلي في الشهر حوالي...

قاطعه ضائقًا:

ـــ لا يهمني دخلك ولا يهمني تجهيز الشقة، أنا رجل لا يملك وقته، ولن أتحدث في هذه التفاهات. دعك من قصة الزواج الآن، ودعنا نتم تعارفنا أولًا.

فقال مستسلمًا:

ـــ لا بأس، أنا كتاب مفتوح.

بدأ القلق يتسلل إلى قلب رحمة، بادلت أمها النظر خلف الباب بوجه جامد، قال أبو بكر وهو يحدق في عين جلال:

ـــ الشيطان يحتكر السلطة، وكل من يخدم السلطة فهو خادم للشيطان.

ـــ إن كنت تقصد الميول السياسية فأنا..

قاطعه الرجل:

ـــ لا أقصد الميول السياسية يا بني، فما فائدة الأفكار إن كانت مغرضة، وكم من مدعي المبادىء أخذوها ستارًا للمصالح كما سبق وأشرت.

ضاقت رؤية جلال وانحصرت في الرجل الذي أمامه، شعر بالانفصال عن محيطه لوهلة ثم قال:

ـــ نعم، فالإنسان أحيانًا يخادع نفسه ويظن أن الأفكار دوافعه، بينما أفكاره هي مجرد انعكاس لغرض في نفسه.

ـــ بالضبط، هذا ما أقصده، لكن كيف تتم مواجهة أمر خطير كهذا؟

ـــ أعتقد أن الإنسان أضعف من مواجهة هذا الأمر وحده، ولكن لا بد من الاستعانة بالله.

تعصب أبو بكر فجأة:

ـــ ومن منا لا يستعين بالله، ولكن كيف سيعينك الله وأنت ضعيف.

هل يقصده هو؟!.. اهتز قلب جلال، واصل النظر في عينيه التي تحدقان به.

ـــ اعذرني يا بني، ما أردت قوله هو أن الإنسان لا بد له من قوة حتى يواجه الشيطان. وأن لا يثق بأفكاره طالما هو ضعيف.

انتابه إحساس بالخطورة، وجد نفسه يقول:

ـــ لا بد للإنسان من قوة، لكن القوة لها مفاهيم عديدة، والقوة في نظر الشيطان قد تتعارض مع الحق. وأكبر خطأ يرتكبه الإنسان هو مواجهة الشيطان على أرضه.

ـــ الحق لا يصير حقًا إلا بترجمته على أرض الواقع.

ـــ الحق حق حتى قبل وجود الواقع ذاته!

قام الرجل فجأة وأخذ يلملم بعض الأوراق:

ـــ حسنًا، أخذنا الوقت وأنا في عجلة من أمري، تشرفت بمعرفتك كثيرًا، ولنا لقاءات أخرى.

ـــ ولكننا لم نتحدث في أمر الزواج!

ـــ صحيح، نسيت أن أخبرك، ابنتي مخطوبة، لكني أرحب بك كتلميذ من تلاميذي!

اندفعت رحمة إلى غرفتها وأغلقت الباب وراءها.

كانت الشقة في الدور الثاني، هبط جلال على الدرج شاردًا، رأى شبح امرأة تقف على عتبة الشقة الوحيدة في الدور الأول، تصوب نظراتها إليه. خمن أن هذه هي فتنة، التي حكت رحمة عنها. كانت رحمة تهوى الرسم، لكن أباها رأى أنه منفذ للشيطان، فكان هذا سببًا في اكتشافها لموهبة غريبة، وهي الرسم الذهني. أخبرته أن هذا السر لا يعلمه سواه، وأنها تستطيع قراءة الأرواح، عن طريق تعابير الوجه العفوية، التي تختزنها ثم تعيد رسمها بالمخيلة، فترى العجائب. فقد ترى وحشًا في صورة ملاك، وقد ترى طفلًا في صورة كهل. أخبرته أنها رأت فتنة لبؤة في صورة ملاك، ومن حينها لم تنظر ناحيتها أبدًا. وأخبرته أيضًا أنها رأت سيف الحق ذئبًا في صورة تلميذ مخلص. وكان كل ما يهم جلال في هذا الأمر أنها تراه ملاكًا في صورة إنسان. فلتتخيل بعد ذلك ما أرادت تخيله، ولتسقط ما أرادت إسقاطه، لكنها محقة بشأن هذه المرأة.

أخذ يستعيد حواره مع أبي بكر، أخذ يستعيد مشهد تلك العيون التي تخترق روحه، لقد ضاقت رؤية جلال وانحصرت في الرجل، أحس بروحه تنفصل عن جسده، لكنه استطاع كشفه في النهاية.

واتجه عقله إلى رحمة، كانت تمتلك طاقة روحية هائلة، تمامًا كأبيها، لكنها كانت بريئة، لذلك أرادها بشدة، إلا أنه قوبل برفض غير مفهوم. ماذا أراد أبو بكر؟! لقد صب اهتمامه على روحه فقط، كان يضغط على كلمة الشيطان وينظر إليه، مما جعله يشك في نفسه.

بيد أن الأمر تخطى مسألة الزواج، وصار معركة روحية، سيجعله هذا يعيد التفكير في أمور كثيرة، حتى يصل إلى يقين، أما رحمة فسوف ينالها في النهاية، سواء شاء أبو بكر أم أبى.

***

(٤)

كان المخطط واضحًا، فكما تم إشعال حرب طائفية بين السنة والشيعة في العراق، ثم تصدرت داعش لمحاربة الشيعة، والحكم باسم السنة. فهذا ما ستفعله في مصر، إشعال حرب طائفية بين المسلمين والمسيحيين، ثم التصدر لمحاربة أعداء الإسلام، بذراعها الخفية. ولم يكن هناك أنسب من ليكوبوليس.

كان آخر بحث صدر قد قسم مراحل الحرب إلى مرحلتين، مرحلة الشوكة والإنهاك، ثم مرحلة إدارة التوحش. تلقى أبو حمزة الفكرة فأضاف عليها تعديلًا طفيفًا. قال لضابط المخابرات الداعشي:

ـــ ما رأيك لو عملنا على المرحلتين معًا؟

ـــ ماذا تعني؟!

ـــ أعني أن تكون الشوكة والإنهاك في سيناء، وأن تكون إدارة التوحش في الصعيد، حيث تجار السلاح هم المسيطرون، ولا يهمهم إلا ضمان مصالحهم.

ـــ وماذا ستفعل في الحكومة؟!

ـــ زعماء هذه التجارة هم الحكومة!

وقد أغرى المخططين دخول الجيش في التحالف السني، الذي واجه التحالف الشيعي بقيادة إيران، فصار الإقليم قطعة من الجحيم.

استقر أفراد الجماعة في الجبل، يتدربون على السلاح، ويصنعون المتفجرات، ويستقطبون الجهاديين. أشرف أبو حفص على التدريب، وترك التخطيط لأبي حمزة، الذي اطمئن إلى سيطرة حلفائه على تجارة السلاح، فكانت ساعة الصفر مرتبطة بقيام الفتنة.

كان القبض على أبي بكر فرصة ذهبية لتصعيد الحرب، لكنهم أفرجوا عنه على الفور. ولولا ذلك لبدأت سلسلة تفجيرات تستهدف جميع الكنائس. لكن لا بأس، لا زالت الفرص كثيرة أمامهم، لقد كانت الشرارة أضعف مما يجب، لذا فسوف يشعلون شرارة أقوى، تحرق بلهيبها كل أعداءهم.

طلب أبو حمزة مقابلة أبي بكر، على انفراد. كان أبو بكر يعرف كل ما يدور ببال أبي حمزة، ويعرف أنه تقرب منه لاستخدامه لغرض معين، ثم التخلص منه، أو جعله صورة في أحسن الأحوال. وهيىء له أكثر من مرة، أن أبا حمزة يتعمد إيصال هذه الفكرة إليه، بطرق غير مباشرة، فقد كان واثقًا من صفقته، وكان كأي شيطان، يعرف كيف ومتى يزين هذه الصفقة في عيونه. جلس أمام أبي بكر، يضم كتفيه، ويحني رأسه في أدب جم، ثم قال بصوت هادىء:

ـــ سأخبرك برسالة سرية يا شيخ، من أخي أبي حفص، حملني إياها لك، لأنك ثقة.

ـــ تكلم يا أبا حمزة.

اقتربت رأسه قليلًا وهو يقول:

ـــ جماعة الجهاد ستسولي على المدينة، يرون أن هذا هو أنسب توقيت لهم.

رغم توقعه شعر بالمفاجأة، لقد وصل إلى محطة خطيرة مع أبي حمزة، فإما أن يتوافقا، وإما أن يقتل أحدهما الآخر. نظر إلى جيب أبي حمزة ثم إلى يده:

ــ هل هذه هي كل الرسالة؟!

ــ ليست كلها بالطبع، ما أرادوه هو أن تنضم إليهم.

ــ أنضم إليهم بأي صفة؟!

ــ بصفة الوالي! فنحن نحتاج من هم في مثل سنك وهيبتك وشعبيتك!

ــ نحن؟!

ارتبك أبو حمزة ثم قال:

ــ أقصد إذا وافقت. أما إذا لم توافق فسوف أتبعك أنت فيما تقول.

ــ وما رأيك أنت يا أبا حمزة؟! أوافق أم لا؟!

ــ أنا لا أعرف إلا على قدر علمي الضئيل، لكنني أرى أن موافقتك ستحسم الأمر، وهذا يتوقف على اقتناعك.

فكر أبو بكر قليلًا، ثم قام قائلًا:

ــ اِنتظر هاهنا.

تركه وسار نحو الباب، ثم هبط السلالم وهو يفكر، لو تحرك أبو حمزة من مكانه فالغدر في نيته، ولو عاد ووجده كما هو فسوف يوافق. وقف أمام باب فتنة وطرق الباب، فتحت له فدخل، ثم قال:

ـــ أعطيني مفاتيح شقتك!

ـــ لماذا؟!

ـــ سأغلق الباب عليك، لا أريد أن تخرجي.

قالت في ضيق شديد:

ـــ لا أفهمك.

ـــ لا وقت لدي للشرح.

نظرت في عينيه لحظة، ثم توجهت إلى الباب ونزعت المفاتيح بعصبية:

ـــ هاهي المفاتيح، افعل ما يحلو لك.

فأخذ منها المفاتيح وخرج، ثم أغلق الباب خلفه وأدار المفتاح فيه. وصعد إلى أبي حمزة فوجده كما تركه، جالسًا يضم كتفيه في أدب جم.

ـــ حسنًا يا أبا حمزة، أنا موافق، لكن بشرط أن أعرف كل التفاصيل الآن، ومنك أنت.

في اليوم التالي جلس أبو بكر مع سيف الحق، وأخبره بالعرض. كانت ثقته فيه أقوى من ثقته في أبي حمزة. لم يتعجب سيف الحق من كلام أبي بكر، قال له:

ـــ كنت أعلم أن هذا اليوم سيأتي!

قال وهو يصوب نظراته المتفحصة:

ـــ لقد قبلت عرضه، فنحن متفقون على ضرورة تطبيق الشريعة، ومحاربة المشروع الصليبي.

فرد متلعثمًا:

ـــ لا بأس، ولكن أبا حمزة ثعلبًا، لا يمكننا الوثوق به.

ـــ وهذا ما أردت محادثتك بشأنه. لطالما كنت الأقرب إليّ، لذا فأنا أريد منك أن تكون ذراعي اليمنى في هذا الأمر.

رد سريعًا:

ـــ أنا ذراعك اليمنى يا شيخنا، قبل هذا الأمر وبعده.

استراح أبو بكر في جلسته:

ـــ هل تستطيع تشكيل جهاز مخابرات صغير؟!

صمت سيف الحق قليلًا، تذكر الأيام الخوالي، في صباه، عندما كان يسير في القرية واضعًا عينه في وسط رأسه، عندما كان يتلقف أتفه خبر عن الآخرين بأهمية قصوى، تخيل الأمر قليلًا، ثم قال:

ـــ ليس هذا بالأمر اليسير، وستكون حاجتنا للإخلاص أضعاف حاجتنا إلى التدريب.

رفع رأسه وهو يمد يده إلى أحد الأدراج أمامه:

ـــ لقد أعددت قائمة بمائة شخص، أظن أنك تعرف معظمهم، ستقابلهم الواحد تلو الآخر لتأخذ عليهم العهد، وتختار منهم خمسين لاختراق الجماعة!

أمسك سيف الحق الورقة ببطء من يد الشيخ:

ـــ لقد كلفتني بأمر عظيم يا شيخنا، لكني سأبذل كل ما بوسعي.

ـــ حسنًا، ابدأ العمل من الآن.

انفصل عما حوله ولم يعد ير إلا الشيخ:

ـــ لن ترى عيني النوم قبل إنجاز المهمة!

ـــ أبو حمزة بالذات، أريد عيونًا عليه.

ـــ بالطبع، وإن أردت التخلص منه في المعركة..

ـــ ليس الآن!

كانت هذه فكرة فتنة، فقد دخل عليها بعد انصراف أبي حمزة من عنده، وأخبرها بالأمر فتحمست له، لكنها قالت:

ـــ لم تستطع روحك تلبس أبي حمزة، وأخشى أن يحدث العكس فتتلبسك روحه!

ـــ لا تقلقي، أبو حمزة تلميذ، مهما راح أو جاء.

ـــ أتدري لم حادثك في الأمر؟

ـــ لأنه لا يستطيع النجاح وحده، يحتاج حكمة الشيوخ!

ـــ لكنه قد يتخلص منك بعد أن يستخدمك.

ـــ عندها سينهدم البناء على رأسه.

ـــ على رؤوسنا جميعًا، إذا لم تأخذ حذرك من الخطوة الأولى، إذا لم تتواجد في كل مكان وفي كل وقت، إذا لم تنتشر عيونك في شوارع ليكوبوليس وحواريها.

اشتعلت الأحداث من جديد في قرية الفتنة، وبدأت حينما أصرت عائلة كبيرة على أخذ ثأرها من عائلة أخرى، فتربص أحدهم بالقاتل وفتح النيران فأرداه قتيلًا، وجاء الرد بعد عدة أيام بقتله، ثم تجمع المسيحيون أمام إحدى الكنائس مسلحون بالأسلحة الآلية، واستمر ضرب الذخيرة في الهواء ما يقرب من ربع ساعة، فاعتبر المسلمون هذا استفزازًا لا يمكن السكوت عليه، فخرجت الجموع بالأسلحة، فانهال عليهم الرصاص من أسطح المنازل، وبدأت الحرب.

في هذه الأثناء، كان الليل قد انتصف. تلقى مينا اتصالًا من ابن عمه المهاجر إلى أمريكا، يطلب منه أن يذهب إلى أهله في القرية، ثم يأخذهم ويذهب إلى أي مكان آخر غير ليكوبوليس. سأله مينا عن السبب فقال:

ــ هناك مظاهرات ضخمة ستخرج اليوم في أمريكا، ليس الأمر ككل مرة، لا ينبئني قلبي بخير، لقد بدأت الصحف تتحدث عن إبادة الأقباط في مصر!

ارتجف قلب مينا، هناك رائحة مؤامرة في الهواء، تتخطى المسلمين والمسيحيين. لم يقتنع يومًا بإمكانية تقسيم مصر على أساس طائفي، لكن هاهي الشرارة تشتعل، إلا أن هذا الأمر لن يحدث أبدًا. اتصل بجلال كي يخبره، رد جلال سريعًا وهو يقول:

ــ هل سمعت بما حدث؟!

ــ نعم سمعت، ارتدت الفتنة قناع الثأر!

ــ ليس هذا ما أتحدث عنه، لقد تم تفجير مبنى الأمن الوطني!

صعق مينا، ارتدى ملابسه سريعًا ثم خرج وقفز على الدرج. اخترق دروبًا ضيقة مظلمة حتى خرج إلى الشارع الرئيسي. توجه إلى وسط البلد راكضًا. كانت سيارات الشرطة قد أغلقت المكان، تجمهر كثيرون في مدخل الشارع الواسع، حاولت سيارات الإسعاف المرور، انتشر أفراد الشرطة في موقع الحادث وقد أصابتهم الصدمة. حاول مينا اختراق الجموع حتى نجح، أوقفه أحد العساكر، أخرج له هويته الصحفية، لكنه أصر على عدم مروره قائلًا: ممنوع.

ثم غافله واستطاع المرور من خلف ظهره، وسار فوق الرصيف حتى اقترب من موقع الحادث، حيث الضباط يحيطون ببضعة جثث لعساكر الحراسة، بجوار بقايا سيارة متناثرة، تمر عليها إضاءات سيارات الشرطة الحمراء والزرقاء. مد يده إلى هاتفه كي يوثق هذه المجزرة. وما هي إلا بضعة لحظات، حتى انفجر المكان بأكمله، انفجارًا أقوى بمراحل من سابقه.

عاود جلال الاتصال بمينا كثيرًا بلا جدوى، كان هاتفه خارج الخدمة، تشتت ذهن جلال بين غياب مينا وبين الأحداث المتسارعة، فقد وقعت سلسلة تفجيرات متتالية، استهدفت المنشآت الحكومية، كما استهدفت كنائس المدينة ومساجدها، مما أصاب العقول بالشلل التام.

انتشرت الأخبار في القرى القريبة، فخرج كل من له ثأر حاملًا سلاحه، وهجم أهالي المجرمين على السجون. وخرجت مجموعات مسلحة، بعضها في ملابس الجيش، وبعضها في ملابس القسيسين، وبعضها في ملابس الأزهريين المعممين.

ثم خرجت أسراب من الدراجات النارية، يقودها مجهولون، أخذوا يتجولون في منطقة تلو الأخرى، يصوبون أسلحتهم، ويخرسون أي صوت معارض، حتى يحكمون سيطرتهم عليها، ويضمنون وقوعها في أيديهم.

سمع جلال بالانفجار التالي، خشي أن يكون مينا ضحية لهذا الفخ الغادر، تسارعت دقات قلبه وهو يعاود الاتصال، ثم قرر التوجه إلى وسط البلد. كان السير في شوارع المدينة مستحيلًا، غير أن جلال أراد الوصول إلى المستشفى العام، لعله يجد مينا هناك. وفي طريقه إلى المستشفى، اعترضه مجموعة قسيسين يحملون سلاحهم، واقفين أمام إحدى الكنائس. صوب أحدهم السلاح إلى صدره قائلًا:

ـــ إلى أين أنت ذاهب؟!

فرفع يداه وقد امتزجت دهشته بارتباكه:

ـــ إلى المستشفى العام، وليس معي سلاح.

فقام آخر بتفتيشه وأخرج هوية الصحفي، نظر إليه متشككًا ثم بادل الآخر النظر، فاقتاده إلى داخل الكنيسة وأغلق الباب عليه.

سار جلال في بهو الكنيسة الواسع، نظر إلى السقف المزخرف المرتفع، وقد انقبض قلبه. ثم نظر إلى أحد الأركان فرأى مجموعة من الجثث، ذات الرؤوس المتفجرة واللحى الكثيفة. غامت الدنيا لوهلة وهو يقترب، كانت الجثث قد جردت من ملابسها فلم يستطع معرفة هويتها الحقيقية، أراد أن يتبينهم جيدًا أو حتى ينظر في أيديهم، ليعرف إن كانوا هم رجال الكنيسة الحقيقيين. لكنه خشي من لمسهم أو

التفرس فيهم، ربما لو كان في مكان آخر لما خشي، لكن رهبة دور العبادة تجتاحه فلا يستطيع الصمود أمامها.

فكر في الهرب سريعًا فتوجه إلى إحدى الشبابيك وفتحها برفق، فرأى مسلحيْن فوق دراجتيْهما النارية، فأغلق الشباك ثانية. نظر إلى الباب فتخيل أحدهم يدخل عليه بسلاحه، ثم يقوم بغربلته بالرصاص. التفت فرأى درجًا صاعدًا فتوجه إليه بسرعة، ثم أخذ في الصعود حتى رأى مدخلًا لدرج آخر فتوجه إليه، وأخذ يرقى حتى رأى نوافذ المنارة، تكشف المدينة، وقد انتشرت النيران في جميع نواحيها، وقف في إحداها ذاهلًا، هاهي المدينة تسقط أمام عينيه، وهاهي سماء ليكوبوليس الصافية، تتحول إلى سماء سوداء.

لم يكن شكري متواجدًا بالمبنى أثناء تفجيره، سمع الخبر فتوجه إلى مكان الأحداث، فوجد تفجيرًا آخرًا قد حدث. نظر إلى المبنى وقد انهارت واجهته، وظهرت المكاتب الداخلية وقد تطايرت محتوياتها. ثم انتبه إلى مجموعة من المسلحين قادمين من الجهة المقابلة، يفتحون نيرانهم على سيارة الشرطة المتبقية. اتخذ ساترًا وأخرج سلاحه سريعًا، لكنه لم يستطع التحرك تحت مطر الرصاص. اتصل بالمديرية يستنجد بها.

كانت المديرية في معركة عنيفة مع الجهاديين الذين حاولوا الاستيلاء عليها، ثم انتشرت الأخبار عن قافلة من الدبابات، تعبر الحدود الليبية متجهة إلى ليكوبوليس. صدر بيان رئاسي أعلنت فيه حالة الحرب، ثم أعلن الجيش النفير العام، لمواجهة العدوان على الحدود الغربية.

كان أبو حمزة يستقل إحدى الدراجات النارية، يطوف بالمدينة ويشرف على العمليات. اقترب من مبنى الأمن الوطني حتى التقت عيناه بعيني شكري، وتبادلا إطلاق النار.

اتسعت عينا شكري عندما رأى شخصًا ملثمًا وراء أبي حمزة، يحمل بيده سلاح آر بي جي؛ فانسحب سريعًا ومن حوله من العساكر إلى إحدى العربات، وحاول إدارتها بيد مرتعشة، لكنها انفجرت قبل أن تنطلق.

شعر جلال بأرض الكنيسة ترج تحت أقدامه فأمسك بالنافذة، ثم سمع صوت رصاص كثيف، فحاول النظر إلى أسفل بعيون جاحظة، فرأى القسيسين يفتحون النيران على جموع مقبلة، فتتساقط الجثث. ثم أتت مجموعة مسحلة من الجانب الآخر تفتح نيرانها، فانسحب الآخرون إلى الداخل، وأضرمت الجموع النيران في الكنيسة. خرج جلال من نافذة الكنيسة، والنيران تلتهمها، حاول وضع قدمه على حزام خرساني بارز، يحيط بجسم المنارة، فانزلقت قدمه، وسقط، حتى ارتطم بسطح الكنيسة. كتم صرخة الوجع وقام متحاملًا على ألمه، سار بخطى عرجاء حتى اقترب من الحافة، ثم قفز على أحد الأشجار.

في هذه الأثناء كان سيف الحق يستقل دراجة نارية خلف أبي خالد، أمام مبنى المديرية الذي نشبت النيران فيه، واحتلته جموع غفيرة أخذت تحطم محتوياته. استطاع تمييز أبي حفص وسط جنوده، فأخرج مسدسه وصوب إليه طلقة، استقرت في مؤخرة رأسه.

قام جلال متحاملًا ثم ركض من أمام النيران الكثيفة. كان الطريق إلى المستشفى قد أغلق بحواجز من النيران. دخل أحد البيوت وألقى بجسده على الأرض، رآه أحد السكان فأشار إليه بالصمت التام، وأخبره أنه صحفي كان في طريقه إلى المستشفى العام لكنه حوصر. أدخله الرجل في شقته. كان الصبح قد اقترب. طلب جلال من الرجل استخدام الهاتف، ثم اتصل بأخيه وطلب منه أن يأخذ أمه ويغادر ليكوبوليس في أقرب فرصة.

استمرت المعارك لعدة أيام، ترك أناس كثيرون خلالها المدينة، ثم صعد أبو بكر منبر المسجد الكبير، واحتشد حوله الآلاف، فألقى خطبة أعلن فيها نفسه واليًا، ثم أعلن البيعة للخليفة الداعشي. ودعا المسلمين أن يأتوا إلى ليكوبوليس، ليدافعوا عن حدودها ضد جيش الطاغوت، وجحافل النصارى.

ثم جمع جنده وحاشيته أمام منزله، ووقف في الشرفة بجانبه سيف الحق من ناحية، ومن الناحية الأخرى كان يقف القائد الجديد، الذي تولى مهام أبي حفص. وألقى عليهم خطبة، يحمسهم على القتال لآخر نقطة دم.

تلقى الجميع خطبته بحماس وحشي، أما أبو حمزة فكان في عالم آخر، فقد كان موت أخيه صفعة أسكرته. شعر بالموت يضع يده على كتفه وهو يصلي على أخيه، وصار العالم من حوله ثقيلًا في آليته.

اخترق الرصاص كاميرات كثيرة، وقامت حملة عنيفة على صحافة الشيطان، فتجمد كل نشاط صحفي معارض. كان جلال على حافة الجنون، استولت عليه روحه القتالية، شعر بأنها فرصته، كي يصل إلى يقين، أو يموت دون ذلك. شعر بانتماءه لأرض المعركة، ورفض الفرار حتى لا يقضي بقية عمره نادمًا. لم تعد رحمة مجرد حبيبة في نظر جلال، بل صارت رمزًا لبقايا وطن، سقط تحت براثن الذئاب. واستطاع الاتصال بها أخيرًا، أخبرته بأن أبيها ينوي تزويجها لسيف الحق، أصر على مقابلتها، قال أنه لن يخرج من المدينة إلا وهي معه.

عادت كلمات أبي بكر ترن في أذنه، أبو بكر يحارب الشيطان على أرضه، لكنه لن يستطيع هزيمته، لقد تحول إلى أداة في يد الشيطان، بل لقد تحول إلى الشيطان نفسه.

لكن نفسه ساءلته، ماذا لو كان أبو بكر محقًا، إن الأفكار لا قيمة لها إن جاءت من المحكومين، أما السلطة فأفكارها أفعال. خطر له فتح مكتبه، ووضعه في خدمة أبي بكر، فيصير ذراعًا إعلامية له. لماذا لا يخوض هذه المعركة ضد غريمه، على أرضه؟ لا تنقصه الروح، ولا ينقصه الذكاء، ليخوض معركة السلطة، فيكون جزءًا منها، ويظفر بحبيبته في النهاية. لكنه انتبه إلى أفكاره، علا صوته وهو يعنف نفسه قائلًا:

ــ حدد ما تريد أولًا، أتريد السلطة أم تريد رحمة؟!

فتراءى له شبح أبي بكر يتحدث:

ــ وهل يتعارضا؟!

ــ نعم، في هذه الحالة يتعارضا، فكيف أتنازل عن قلبي للشيطان ثم أدعي حب الوطن؟!

ــ دعك من حديث المراهقين هذا، ألا تريد الزواج منها؟ ستتزوج في النهاية، أعدك وأضمن لك، إذا تخليت عن الضعف واخترت القوة.

ــ بل إذا تخليت عن القوة واخترت الضعف! إن رحمة هي ما تبقى بداخلي من روح، فكيف أنالها وأنا أتنازل عنها؟!

ــ إذن فاتركها لقدرها، وامض لقدرك.

ــ إن قدرنا هو نفس القدر!

***

أنهى أبو بكر إحدى اجتماعاته في مكتبه، ثم عبر الباب الذي يفتح على الشقة، فوجد رحمة أمامه، قالت:

ــ أريد الحديث معك يا أبي.

ــ ليس لدي وقت يا رحمة، تعلمين مدى انشغالي.

ــ لا أريد سيف الحق يا أبي.

نظر في عينيها طويلًا، زاغت عيناها فيه حتى رأته جمجمة فجفلت.

ــ انتبهي إلى كلماتك، لا تريدين سيف الحق؟ سيف الحق؟! أتريدين سيف الباطل إذن؟!

ــ لم أقصد هذا، لا مشكلة لدي مع الاسم.

ــ ألا تعرفين من أعطاه هذا الاسم؟!

ــ أعرف يا أبي أنك من أعطيته اسمه.

ــ ألهذا لا تريديه؟!

ضاقت رؤيتها وانحصرت في جمجمته، أحست بالرعب الشديد، وضعت يديها على وجهها.

ــ ألهذا لا تريديه يا رحمة؟! لأنني من أعطيته هذا الاسم؟! انتبهي لما تقولين يا رحمة، أنت فتاة غريرة بريئة، وأنا أدرى بمصلحتك. لماذا تخبأين وجهك؟.. ألهذا الحد تخجلين من نفسك؟!

سالت دموعها بغزارة، استئذنته وتوجهت إلى الحمام، أغلقت الباب خلفها، جاءها صوته:

ــ انتبهي لأفكارك يا رحمة، فأنت في بيت الشيطان!

تدافعت دموعها، لشدما تحتاج إلى جلال الآن، كي ينقذها من هذا الجحيم، لقد ألح على مقابلتها كثيرًا، وقد حان وقت الجرأة، فإما وداع وإما هروب. وإما موت ينهي كل هذا.

***

(٥)

تلقت أم رحمة صفعة على وجهها، فجلست تبكي على الأرض. قبض أبو بكر القاهري على هاتفه بيد مرتعشة من فرط الغضب، علا زفيره على نشج المرأة الباكية على الأرض.

ــ هذا خطأك يا امرأة، كيف تسمحين لها بالخروج يا عديمة العقل، يا عديمة النفع.

ردت المرأة وكلماتها تختلط بنشيجها:

ــ والله يا شيخ لم أسمح لها بشيء، لقد أصرت على النزول ولكنني رفضت، ثم غافلتني وذهبت، أين أنت الآن يا ابنتي؟

شدد قبضته وهو يتوعد:

ــ انتظري حسابك العسير لم يأت بعد، أنت وابنتك هذه عديمة التربية، عديمة النفع.

لم تزل أم رحمة تنشج، وتنزف الدموع، علا صوتها فجاءها صوته محذرًا:

ــ اخرسي يا عديمة العقل وإلا حطمت رأسك، اخرسي يا جالبة الفضائح.

توجه إلى الحمام ليتوضأ، كفت يده عن الإرتعاش قليلًا. عاود الاتصال مرارًا فوجد الهاتف مغلقًا. دخل غرفتها يفتش، عثر على بعض الأوراق، قرأ إحداها" وداعًا يا أبي، وداعًا يا أمي، إني ذاهبة". ثار وانتفخت أوداجه، ركض ناحية امرأته يركلها، أخذت تقاومه، تلبستها روح التحدي.

ـــ كفى أيها الظالم، سينتقم الله منك يومًا.

توقف عن الركل فجأة، استدار إلى المكتبة التي تتوسط الصالة، خطا إليها على مهل، أخرج منها زجاجة مياه. ثم سار إلى المرأة يرميها بنظراته المرعبة، وطفق يرش المياه عليها، وهو يقرأ بعض الآيات. ثارت المرأة وأخذت تتلوى، كانت مياه مقدسة قد تلي عليها آيات قرآنية. تحول وجه المرأة واكتسب صوتها نبرة مخيفة:

ـــ ستكون نهايتك على يدي أيها الدجال.

أمسك بشعرها فصرخت، جرها إلى إحدى الغرف وهي تقاوم بلا جدوى، ثم أغلق الباب خلفه بالمفتاح، فظلت تضرب يدها بالباب.

قصد مكتبه الذي تحول إلى غرفة قيادة، تطل على الشارع مباشرة، وتمتلىء بالأجهزة والشاشات، وفي الجانب الأيسر كان مكتب ضخم، امتلأ بالهواتف والأوراق، يقابله منضدة تتوسط خمسة كراس كبيرة، وعليها مجموعة من الخرائط.

وقف في الشرفة الكبيرة، طل على الشارع الواسع حيث جنوده المدججين يحتلون كل ركن. كانت ليلة هادئة. التفت إلى التلفاز فرأى صورته على الشاشة، أمسك بالريموت وألغى كاتم الصوت، كان الكلام يدور عن الحرب الطائفية الدولية، التي تتأجج نيرانها يومًا بعد يوم، تساءل ما الذي يجعلهم يقحمون صورته في كل شيء؟! أكان هو من أشعل هذه الحرب؟! كتم الصوت ثانية وألقى بجسده على المقعد، عاود الاتصال بلا فائدة، أخذ يهدىء نفسه ويستجمع شتات فكره.

لا يحب أن يفلت زمام نفسه، فلا تأت الكوارث إلا بعد الغضب. لكن الضغوط كثيرة والمعارك على أشدها، أعلن الحرب على العالم فأعلن العالم الحرب عليه، يحارب على جميع الجبهات مرغمًا. حتى يحسم الأمر ويستقر.

بذل جهدًا خرافيًا كي يؤمن ظهره، لكن هاهي الخيانة تأتيه من حيث لا يحتسب. عاود الاتصال بلا فائدة، يريد أن يستجمع تركيزه، بأقصى سرعة، يريد إعادة ترتيب أفكاره قبل أن تحدث خيانة، قبل أن ينفرط عقد الثغرات الذي لملمه. اتصل بها ثانية، ردت على اتصاله هذه المرة:

ـــ أين أنت يا رحمة، كيف تتأخرين لهذه الساعة؟! وما هذه الرسالة التي تركتيها؟! ألا تدرين خطورة ما تقومين به على أبيك؟!

ـــ أنا عائدة يا أبي.

ـــ عائدة من أين؟ أخبريني بمكانك حالًا، وسوف أرسل رجالي إليك.

ـــ لا داع لهذا يا أبي، سوف أخبرك بكل شيء عندما أعود.

وانقطع الخط. جن جنونه، نظر إلى التلفاز في قلق، لا يمكنه الانتظار حتى يرى الخبر على الشاشة، لا بد من التصرف السريع. ثم فكر في فتنة، لقد قرر إغلاق هذا المنفذ، لكنه الآن مضطر، فقد تستطيع إيجاد حل سريع، يخرجه من هذا المأزق الخطير.

***

ـــ ماذا سنفعل يا جلال؟

جاء صوتها بالسؤال الذي تمنى أن يتأخر قليلًا، ريثما تظهر العربة. ومر شابان فأمعنا فيهما النظر، والتفت إليها فوجدها تنظر إلى الفراغ في يأس، ثم نظر إلى النفق خلفهما فضاقت عيناه في حركة غريزية. وتلاحقت أنفاسه وهو يقول:

ـــ لا حل غير هذا النفق.

فقالت بنبرة تهكمية لا تخلو من مرارة:

ـــ لا محل للجنون الآن، كيف سنعبر من نفق مظلم غريق؟!

لم تعجبه نبرتها فقال منفعلًا بصوت خافت:

ـــ البلد كلها تعبر نفقًا مظلمًا غريقًا، البلد كلها.

ـــ اصمت، لا يجدر بك أن تتحدث هكذا.

ـــ سنستخدم كشاف الهاتف ونعبر، أعندك حل آخر؟

ـــ ولكن هذا.. سيبلل ملابسنا.

ـــ سوف نجد حلًا لهذا ولكن.. لابد من التصرف السريع، فالوقت ليس في صالحنا. ألا تثقين في تفكيري يا رحمة؟

أغمضت عينيها ثم تنهدت وهي تقوم معه فقال:

ـــ انتظري، لابد ألا يرانا الناس، فهؤلاء الأغبياء سيقتلهم فضولهم.

ونظرت حولها ثم قالت:

ـــ وماذا ستفعل؟

ـــ عندي فكرة، سننصرف من هنا ثم تعودين دون أن يراك أحد.

ـــ وأنت؟

ـــ لا تقلقي، سآتي وراءك. حسنا؟ لننصرف.

وانصرفا فعادت هي وهبطت النفق فلم يراها أحد، ثم عاد هو بعد قليل فإذا به يلمح عربة مقبلة، وإذا بالناس يحيطون بها فيركبوا بداخلها، ويتعلق آخرون بالشبابيك، ويصعد آخرون على السقف. ثم انطلقت وهي تميل يمينًا ويسارًا من كثرة الناس وعدم اتزانهم. كل هذا وهو مسمر في مكانه. ورأى انشغال الناس وجمهرتهم فهبط النفق على غفلة من الناظرين. وأجمع أمره على ألا يخبر رحمة بما حدث، وماذا سيقول لها؟ أسيقول لها أن العربات لا تأت الا اذا هبطت النفق؟!

وهبط على الدرج حتى حل الظلام، سار قليلًا وهو لا يرى شيئًا، مد يده يتحسس الهواء حتى لمسها فمدت يدها فاحتضنته، احتضنها بقوة وقبلها، ثم أخرج هاتفه وفتح الكشاف، وأخذ يستكشف النفق على ضوءه الضئيل. وجد أنه على هيئة ماسورة ضخمة يتعدى قطرها المترين، تنثني تحت الأرض، فقد وجه الكشاف إلى الأمام فوجد حائطه ينحني إلى اليمين. أمسك بيدها والمياه تكاد تبلغ في ارتفاعها قدمًا. توقف حتى يرفع بنطاله فينحسر عن قدميه. وقال لها:

ـــ افعلي مثلي كي لا تبتل ملابسك.

ـــ لقد ابتلت ملابسي بالفعل، لا لن أفعل.

فلما وجد ترددها انحنى فشمر عن ساقيها بينما وضعت يدها على كتفه، ثم ناولها طرف جلبابها، ثم أمسك بيدها وأوغلا السير. والنفق ساكن إلا من أصوات المياه تشقها أرجلهما. أمسكت به والتصقت فيه من الخوف، فأحس بزهو داخلي. وتقدم في المسير كبطل تحتمي به حبيبته، كما احتمت حواء بآدم من قبل حينما واجها الوحوش والظلام والعفاريت والأباليس. وضوء الكشاف ضئيل لا يكشف لأعينهما سوى خيط أبيض، يشق السواد ويتناثر حوله غبار الضوء، يحوم كما يحوم البعوض حول نفسه. فأخذا يتقدمان ببطء وحذر وهو يزيح ما علق بأرضية النفق ليمهد طريقهما.

وهمست تقول له:

ــ هل اقتربنا من الوصول؟

ــ لا أدري.. لكن هذا النفق له نهاية بلا شك.

ــ ما الذي أتى بي معك؟!.. أنا خائفة يا جلال.

فقال كاذبًا:

ــ لا شيء يدعو إلى الخوف.

وفزع عندما سمع رنين هاتفها، يجرح السكون كما يجرح السكين الجلد، وارتجفت وهي تخرج الهاتف من الحقيبة فوقع منها وانقطع رنينه، وأحدثا جلبة وهما يتحسسان الأرض. والنفق صامت ساكن، لكنه ليس راضيًا عن عبثهم بسكونه، واضطرابهم داخل أمعائه. عثر على الهاتف آخر الأمر مبلل ممتلىء بالمياه. لا أمل في جفافه إلا لو وضع في فرن!

خاف من انهيارها فسارع بطمئنتها قائلًا:

ــ لا تخافي، سأحبك لك قصة تبرر كل شيء، لا تنسِ أنني درست الصحافة والإعلام!

لكن صوتًا جعلهما يحجران أقدامهما، ويمسكان أنفاسهما. انطفأ الكشاف سريعًا، وأخذ الخوف يتسلل. وظهر ضوء قادم من الجهة الأخرى، مصحوبًا بجلبة في المياه وسعال جاف. تشبثت رحمة بذراع جلال فهمس لها:

ــ اخفضي بصرك ولا ترفعيه مهما حدث.

جذبها بكل بطء إلى الحائط. لا بد أن أحدهم قد سرق فكرته، لعله أراد العودة إلى منطقته فلم يجد غير هذا الطريق. وتقدم الرجل بكشافه الضئيل في حذر. طفق يدير كشافه فوقع عليهما أكثر من مرة. ولكنهما لم يرفعا أبصارهما أبدًا!

تابع الرجل المسير حتى حاذاهما، ولم يخطر بباله قط أن أحدهم قد يفعل فعلته. كتمت رحمة أنفاسها إلى حد يفوق الاحتمال. ولأول مرة مذ دخلت هذا النفق، أحست ببرودة المياه تسري في أوصالها. وبدأت الرعشة تتملكها. أمسك جلال بيدها. كان مفرغًا من كل شعور، لم يكن هناك غير الانتظار. ضغط على يدها كي يطمئنها، لا يمكن أن يراهما الرجل فلن ير إلا ما يريد رؤيته، ولن يصدق إلا ما يريد تصديقه. ولكن رعشتها لم تتوقف. وخرج زفيرها عنوة وقد صاحبه صوت لفت انتباه الرجل فالتفت مشدوهًا.

اتسعت حدقتا جلال بتحفز رهيب، أحس بالخطر فأخذت أنفه في التقلص، وانعقد حاجباه وبرزت أنيابه، وتحولت يداه إلى مخالب وحش. وجد نفسه يصدر كل أصوات الافتراس والوحشية، وانطلق ناحية الرجل ينوي إغراقه في المياه بينما صرخت رحمة.

وقع الرجل لكنه سارع بالقيام، ترك كشافه على الأرض، وأخذ يركض صارخًا في رعب ورهبة، حتى صعد من النفق يهرول كالمجانين صارخًا:

ــ العفاريت في النفق، الشياطين في النفق.

وتجمع الناس حوله يهدأون من روعه، وجاء الرجل ذو الزي الداعشي، الذي أطال النظر إليهما، كي يفض التجمع ويحل المشكلة. وأخذ يستجوب الرجل ويستفهم منه، ففهم أن هناك أحدًا بالنفق، قد يكون مجرمًا هاربًا وقد يكون حيوانًا، ثم أخذ كشافًا وقرر أن يهبط النفق ليرى بنفسه.

***

هبط إليها وأخرج مفتاحه ببطء، فتح الباب بحذر، كانت الشقة معتمة تمامًا، تحسس الحائط باحثًا عن مفتاح النور، ضغط عليه فلم يسطع الضوء، كانت المصابيح قد اكتست بغبار أسود. امتد الغبار يكسو الحوائط والسقف، أخذ يتشكل بفعل نفحة هواء ضلت طريقها. كانت تجلس على مقعد يواجه التمثال، مكسوة بالإضاءة المغبرة. اقترب منها بحذر، جاءه صوتها دون أن تلتفت عن تمثالها:

ــ كيف تدخل عليّ دون استئذان؟!

تجاهل سؤالها، كان يراقب الغبار الأسود، تساءل قائلًا:

ــ ما هذا الغبار؟!

ردت بحزم:

ــ ليس من شأنك.

انطلق إلى التمثال قائلًا:

ــ سأحطم هذا التمثال.

ودفعه بيده فوقع على الأرض. أمسكت بسكين على المنضدة واندفعت تجاهه:

ــ سأقتلك إن لم تقتلني.

نظر إليها متوعدًا:

ــ سأقتلك ولكن ليس الآن.

ضحكت هازئة، ثم ماتت ضحكتها وهي تقول:

ــ ما الذي أتى بك الآن؟

ــ أريد معرفة مكان رحمة.

ــ رحمة؟!

ــ لقد خرجت دون إذني، ولم تأت إلى الآن، تركت رسالة وداع، اتصلت بها فقالت أنها عائدة لكن قلبي لا ينبئني بخير.

تاهت عينا فتنة في الهواء وقالت ياللمصيبة.

ــ هل لديك فكرة عن كيفية إيجادها؟

ــ اجلب رسالتها، وكل ما تظنه مفيدًا لي.

ــ وكيف لي أن أعرف؟

ــ اذهب فحسب.

صعد أبو بكر إلى شقته، متوعدًا أن يشنق تلك الساحرة. دخل غرفة رحمة وأخذ يفتش، قلب الغرفة رأسًا على عقب. فتح أحد الأدراج بعصبية فوقع، وجد خلفه مجموعة من الأوراق، أمسك بها يتفحصها فوجدها رسومات. من أين أتت هذه الغبية بالألوان؟!.. أخذها وهبط إلى فتنة.

ــ لقد نسيت الباب مفتوحًا، كنت أستطيع الهرب.

ــ ليس وجنودي المدججون يملأون الشارع.

ــ لقد هربت ابنتك وهي الفتاة الغريرة. ألا أستطيع أن أهرب أنا؟! هل تعتقد أنك تحبسني حقا؟! هل تصدق نفسك؟!

ــ لست في مزاج جيد لترهاتك. هاهو ما طلبت.

نظرت إليه ناقمة، ثم أخذت الرسومات، قلبتها ثم قالت:

ــ ممتاز!

وضعت الرسومات أمامها وأخذت في تأملها وتفحصها. شردت كثيرًا. أراد أبو بكر أن يتكلم فأوقفته بإشارة من يدها. قالت له:

ــ ابنتك تعبر نفقًا مظلمًا غريقًا.

ــ حقيقة أم مجازًا؟!

ــ لا أعلم، ولكن إذا نظرت إلى هذه الرسومات ستشعر بما أشعر.

قال منذرًا:

ــ تبًا للمشاعر وتبًا للرموز، أريد معرفة مكان ابنتي الآن.

ــ ولماذا لا تعرف بجنودك من الجن؟!

قالتها ضائقة فاقترب منها:

ــ ولماذا لا تعرفي بعلمك الذي ورثتيه؟!

ــ لقد قلت كل شيء

ــ لم تقولي شيئًا، أنت عديمة النفع.

واتجه إلى الباب.

ــ إن كنت عديمة النفع فاقتلني قبل أن أقتلك.

لم يرد عليها، أغلق الباب وراءه بالمفتاح وصعد. زاد ارتعاشه وهو يضغط أرقام رحمة. كان الهاتف مغلقًا، كاد أن يفقد صوابه، اتصل بسيف الحق.

كان في اجتماع مع مجلس مخابراته، عندما هاتفه أبو بكر وطلب منه القدوم فورًا، أنهى اجتماعه سريعًا واستقل عربته، ثم انطلق إلى منزل الوالي. ووصل خلال دقائق. أخبره أبو بكر بالأمر. وقع الخبر على سيف الحق وقع الصدمة. أخرج هاتفه وأخذ يعبث به، سأله أبو بكر عما يفعله. قال أنه يراجع أحداث الليلة عله يجد خيطًا يتتبعه.
أخذ منه الهاتف، كان هاتف سيف الحق يستقبل عشرات الرسائل كل دقيقة، كانت كل همسة تصل إليه، عن طريق مرؤسيه ومخبريه. أخذ أبو بكر يقلب في مئات الرسائل. لفتت نظره رسالة تتحدث عن نفق مظلم غريق، خرج منه رجل وهو يصيح: العفاريت في النفق، الشياطين في النفق.
ناول الهاتف لسيف الحق، نظر في عينيه مباشرة وهو يقول:

ــ توجه إلى مكان هذه الرسالة.

***

(٦)

هبط الرجل ذو الزي الداعشي، الذي أطال النظر إليهما، درج النفق ببطء، ممسكًا بكشاف كبير. وتبعه رجلان آخران. ظل يهبط حتى ابتل حذاءه فتراجع درجة، بينما وقف الرجلان الآخران في منتصف الدرج، وتجمع الناس بالأعلى. اخترق ضوء الكشاف سطح المياه الأسود، كانت المياه راكدة، لكنه لمح تموجًا طفيفًا يتهادى إلى الحائط، ثم يصطدم به. وكانت أرضية النفق، قد امتلأت بالحجارة، وغرقت بعض قنابل الغاز حتى استقرت بالقاع، بينما تطفو الزجاجات فوق الماء. وجه الكشاف إلى الأمام، فوقع على الحائط المتهالك، أدار الكشاف فلم ير شيئًا، رفع صوته ينادي فلم يجبه أحد.

كان الحبيبان لازالا في النفق، التصقا بالحائط، غاصت في صدره وانفصلت عن العالم، أغمضت عينيها، تشبثت به، تقبض عليه، وتمنعه من تركها. سينتزعونه منها، لكنها لن تفلته. ستهوي من شاهق، لكنها تتعلق به. أحاطها بذراعيه، كان يشعر بشدة كفيها، أحس بأن أظافرها تنغرس في جسده، لم يتصور يومًا أنها تمتلك هذه القوة.

نظر يمينًا إلى بوابة النفق، بوابة النجاة، ونظر يسارًا حيث الخطر. كانا قد عبرا المنحنى، لذا فلن يراهما أحد، لكن عيناه قد التصقت بسقف جفنيه، ناظرًا إلى مصدر الخطر، مترقبًا سماع أحدهم يخوض المياه.

أخذت رحمة تدعو الله، أن يحميهم، أن يساعدهم. تذكرت هاتفها، حمدت الله على ما حدث، لو كان رنينه قد تأخر قليلًا لافتضح أمرهما الآن. رفعت رأسها ببطء، نظرت

يسارًا، مدت يدها إلى يد جلال وأخذت هاتفه، أرادت أن تفعل خيار الصمت كي تطرد وساوسها، لكنها خشيت لفت نظرهم. همس جلال في أذنها:

ــ لا تخافي، لن يحدث لنا مكروه، أبدًا أبدًا.

تراجع الرجل ذو الزي الداعشي، الذي أطال النظر إليهما، وهو يقول:

ــ لا يوجد شيء، لعلها كانت قطة أو كلب ضال، سننتظر إلى الصباح حتى نجد حلًا لهذا النفق.

سمعا أصوات الأقدام وهي تصعد قافلة. دمعت عيناها. أمسك وجهها بيديه، تأسف لها بالنيابة عن نفسه وعن العالم، قبلها كثيرًا، تدافعت دموعها دون توقف، مسح دموعها قائلًا:

ــ نحن لن نستطيع العيش في هذه البلاد.

قالت وهي تنشج:

ــ لا أريد الخروج من هنا، أريد أن أموت غريقة في هذا النفق.

ــ لا مزيد من لوحات الموت يا رحمة.

ــ ضمني إلى صدرك، أكتم أنفاسي، أريد الموت في أحضانك.

ــ لن تموتي، سنهرب ونتزوج، ستنجبين الأطفال وترسمين اللوحات.

ــ دعني أرسم آخر لوحة لأحقق أحلامي الضائعة، وأكتفي.

خبئها بداخله، ورفع رأسه عاليًا. كان يمسك بروحه التي تنساب من بين يديه، تذكر أنه كان ينوي إغراق الرجل، شعر بنغزة في قلبه، أخذ ضميره يوخزه بعنف، يريد أن يخرج من هذه البلاد، ويأخذ معه ما تبقى منه.

وأخذت رحمة في رسم لوحة أحلامها، فوق أرض خضراء، أمام شلال يصب في نهر، ترى أصداف قاعه. جلسا على الشاطىء، لا يوجد إلاهما، ظلا ينظران إلى بعضهما البعض دونما كلمة، حتى حل الأبد.

***

كان منزل أبي بكر القاهري يقع في شارع واسع قصير، يربط اثنين من أهم الشوارع الرئيسية في المدينة. اعتبر موقعًا استراتيجيًا للحكم، وتم نقل سكانه إلى الشوارع الرئيسية، واستخدمت بعض المنازل الفارغة كسجون سياسية، بينما استخدمت الأخرى كسكن للحاشية. لم يكن مصرحًا لأي عربة بالدخول بما فيها عربة سيف الحق نفسه. مشى سيف الحق ينظر يمينًا ويسارًا إلى صفي الجند المدججين، نظرات صارمة. وبنهاية الشارع كان قلبه قد اطمئن إلى سيطرته الكاملة، فاستقل سيارته الجيب.
كان يشعر بالضيق بسبب هذا الأمر الطارىء، فقد كان مقررًا أن يعقد في الصباح لقاءً سريًا مع مسئول التصفيات، كي يصدر إليه تكليفًا خطيرًا، وهو أن تتم تصفية أبي حمزة. أتته المعلومات تفيد بأن أبا حمزة ينوي الانشقاق، وقد أسر بهذا إلى أبي خالد.
أحس سيف الحق بالخطر الكبير، نقل الأمر إلى أبي بكر القاهري، فأصدر أبو بكر فتواه

السرية. اطمئن قلب سيف الحق، وبدأ يحبك الخطط. حتى استقر على خطة مثالية، تضمن عدم انهيار الجند باغتيال أبي حمزة. وهو الشرط الذي وضعه أبو بكر، عرض الأمر على مسئول التصفيات، كي يضع التفاصيل، ثم رفع الخطة إلى أبي بكر مرة أخرى، فأصدر الموافقة النهائية.

أبو حمزة الانصاري؟!.. يظن نفسه قويًا ويتطلع إلى ما هو أكبر منه، لا يعرف كم بذل سيف الحق كي يصبح ما هو عليه. لكن لا تثريب عليه، فسوف ينال ما يستحق من التكريم، عندما ينال الشهادة في مواجهة مع الأعداء. عندها ستطلق الولاية اسمه على إحدى منشآتها فيصير رمزًا يقويها ويرسخها في النفوس، (مدرسة الشهيد أبي حمزة الأنصاري) يا له من عنوان!

تضاعف شعوره بالضيق وهو ينحني بسيارته إلى أحد الشوارع الجانبية. لا تأت المصائب إلا تباعًا، لكن أبا بكر لديه معلومات عن رحمة. لطالما شك بأن لديه مصدرًا أخرًا للمعلومات، لا يعرفه. ما الذي قد تفعله رحمة عند النفق؟.. هو على بعد دقائق من المعرفة. أحس بالقلق وهو يقترب، وقف قبل التجمعات المائية، اطمئن للمكان فأخرج هاتفه واستدعى مرسل الرسالة.

جاءه في غضون ثوان، الرجل ذو الزي الداعشي، الذي أطال النظر إليهما. ترجل سيف الحق من السيارة، مد الرجل يده يسلم بوجه مستبشر، ثم أخذه في جولة يشرح له الوضع. استفسر سيف الحق عن الرسالة التي أشارت إلى النفق، حكى له الرجل ما حدث، وختم حديثه بأنهم سيصلحون النفق في الصباح.

ــ هل صدر مني أمر بهذا؟!

ارتبك الرجل ثم أجاب بالنفي.

ــ لا تأخذ قرارات من أم رأسك مهما بدت لك تافهة، فنحن في ظروف استثنائية، سيبقى النفق كما هو، وستبقى عيناك مفتوحتان، كما هي. أليس كذلك؟

أمن الرجل على كلامه، أخذ سيف الحق يتفرس في وجوه من تبقى من الناس، سأله عن فتاة وحيدة فأجاب بالنفي، سأله عن شيء غريب حدث باستثناء حادثة النفق، فأجاب نفس الإجابة. شعر بالحيرة.

أراد أن يتصل بأبي بكر لكنه تردد. فضل الانتظار، ولم يدم انتظاره طويلًا، فقد اتصل به أبو بكر وأمره بالتوجه إلى عنوان بيت جلال. ولم يخبره بالطبع عن صورة جلال التي وجدها، في غارة تفتيشية صارمة شنها على غرفة رحمة.

***

قررا الهروب لكن كان عليه أن يذهب إلى بيته أولًا. دخلا المنطقة تحت ستار الليل. سبقته هي، كانت الشوارع مليئة بالداعشيين، تفرستها بعض الأعين لكن أحدًا لم يتعرض لها، ودخلت المترل تتبعها النظرات. صعدت سريعًا وقلبها يدق، أعطاها جلال المفتاح ووصف لها الشقة. مضى بعض الوقت قبل أن يأتي جلال، كان معروفًا لدى الداعشيين، فقد كان بعضهم من أهل المنطقة، وكان البعض الآخر أغرابًا لكنهم خدموا في المنطقة لوقت كاف، ألقى عليهم السلام فردوا بنظراهم المتشككة كالمعتاد. صعد سريعًا ودفع باب الشقة برفق. دخل يبحث عن رحمة فلم يجدها في الصالة ولا في الغرف، لمح باب الحمام مغلقًا، طرقه بهدوء فجاءه صوتها مختنقًا بالدموع:

ـــ نعم، أنا خارجة، انتظر قليلًا.

ـــ ما بك يا رحمة؟ هل تبكين؟

ـــ لا شيء، اتركني قليلًا من فضلك.

ـــ كما تشائين ولكن أسرعي، فأنا قلق عليك.

ــــــ لا شيء ياجلال لا تقلق.

وتراجع مفكرًا، لكن سرعان ما تلبثته عقليته العملية، فذهب إلى الدولاب وفتحه. أزاح بعض الملابس من فوق الرفوف السفلية فظهرت حقيبة جلدية صغيرة. كانت تحتوي على كل ذكرياته وخصوصياته. فتح أحد جيوبها وأخرج منها مبلغًا من المال فوضعه على الرف، أخرج بعض الأوراق وأخذ في قراءتها. كان في أسفل الحقيبة خنجر ذا مقبض عاجي. تأمله قليلًا ثم وضعه فوق النقود. أخذ يقلب في ملابسه. كان يعد للرحلة فقد أخذ قرارًا لا رجعة فيه. وهو ككل قراراته المصيرية في الحياة. أخذه بقلبه ثم نحاه جانبًا، وترك مسئولية التنفيذ لعقله المسكين.

سمع صوت أقدام تقترب، التفت إليها، كانت عيونها لا زالت تحمل آثار الدموع، رغم عنايتها في غسل وجهها. رآها فاتنة رغم الحزن، لكن قلبه تألم. التفت إلى عباءتها المتسخة:

ـــ لا بد أن تبدلي هذه العباءة، افتحي هذه الدلفة واعثري لك على عباءة مناسبة.

ـــ لماذا تأخرت؟ لقد انتظرتك كثيرًا وكنت خائفة.

ـــ اعذريني فهؤلاء الكلاب يسجلون لي كل حركة.

ـــ أنا خائفة يا جلال.

أمسك بكتفيها، أخذت تقلب عيناها بين عينيه وهو يقول:

ـــ لا وقت لدينا للخوف، لست وحدك فأنا معك. جهزي نفسك سريعًا كي نرحل.

ثم لملم متعلقاته وخرج، ولم ينس أن يسحب الباب قليلًا. خطت تجاه الباب وأغلقته، نزعت غطاء شعرها فانسدل، وضعت يدها على عباءتها ثم خلعتها بحركة بطيئة، لمحت مرآة مثبتة بدلفة الدولاب المفتوحة، توجهت إليها ثم وقفت تتأمل وجهها، عساها تفهم شيئًا مما يدور. كانت ترتدي بلوزة خفيفة بيضاء اللون، وبنطالًا أسودًا. وضعت يدها على صدرها الذي لا يكف عن الصعود والهبوط. كان وجهها كسطح ماء البحر، هادئًا يخفي صراعات الأعماق.

خرج جلال من الحمام يرتدي ملابسه، توجه إلى الشباك وأطال النظر من خلفه إلى الشارع فوجده هادئًا. ظل يتابع الريح وهي تعبث منذرة. ثم توجه للباب يطرقه كي يستعجل رحمة.

أخرجت إحدى العباءات فارتدتها، تخلت عن البنطال واستبدلته بآخر من دلفة جلال. لقد عبرت خط اللارجوع، لكنها اطمئنت إلى ربط مصيرها بمصير من تحب.

ظل جلال ناظرًا من خلف الشباك، أحد الداعشيين يتحدث في هاتفه، أنهى المكالمة ثم نظر باتجاهه. شعر أن عينيه تخترق عينيه، تراجع عن الشباك بسرعة. توجه إلى رحمة فوجدها تخرج من الغرفة. سحبها من يدها إلى الخارج. ألقى نظرة أخيرة على شقته. ترك الأنوار مضاءة، ثم خرج وأغلق الباب وراءه بهدوء شديد.

هبطا بعض السلالم بقلب منقبض، سمع ضجة بالأسفل، أوقفها بإشارة من يده، حاول استراق السمع بلا فائدة، لكن جلبة مفاجئة جعلته يمسك بيدها ويصعدا سريعًا.

***

اضطربت أفكار سيف الحق، ما علاقة النفق بهذا الشاب المغفل؟ استقل سيارته قافلًا تشيعه تحيات الرجل ذي الزي الداعشي، الذي أطال النظر إليهما.

انتابه توتر رهيب، اتصل برجاله في منطقة جلال، جاءته المعلومات بعد قليل، تفيد بتواجده في شقته، أمرهم بالتأكد من عدم نزوله، وانتظاره حتى يحضر. كان الأمر في غاية الحساسية، فضيحة ستدوي أصداؤها في الأرجاء. كيف لم يتنبه إلى هذا الشيطان الصغير؟ هذا الشيطان الذي سولت له نفسه أن يتقدم لطلب يد رحمة، وهو ليس لها بكفء، كان هذا قبل إعلان الولاية فماذا الآن؟ هل يعبث بحياته؟ هل يجرؤ؟!

لطالما كانت الشياطين أعداءه، لطالما أراد أن يعيد هندسة المجتمع لصالح المؤمنين، لصالح الشجعان. إن قتل شيطان ومنع توريث جيناته لهو أسمى ما في الوجود. وصل إلى الشارع، جاءت لحظة الحقيقة، استقبله الرجال بما يليق به، أشار أحدهم إلى شقة جلال، نظر فوجد الأنوار مضاءة. همّ البعض بالصعود معه قبل أن يوقفهم بإشارة من يده، وصعد وحده.

توقف أمام باب الشقة قليلًا، مد يده إلى جنبه يتحسس سلاحه، تراجع خطوتين، رفع قدمه وركل الباب ركلة واحدة، ركلة مدفعية لم يصمد الباب أمامها.

كان المنزل خمسة طوابق، وكان سطحه بلا أسوار. أراد أن يصعدا السطح ثم ينتقلا إلى سطح منزل آخر، توجد بوابته في شارع جانبي، ولم يكن هذا بالأمر السهل، حيث أن الصعود إلى سطح منزله كان مغامرة رهيبة. كانت الطريقة الوحيدة المتاحة أمامهما هي أن يصعدا على سور قصير، يقع على الشارع مباشرة، ثم يمسكا بسطح المنزل الخرساني ويحاولا رفع نفسيهما. صعد جلال أولًا، كان يفعلها وهو طفل، عندما كان يستخدم هذا السطح في زرع الورود والنباتات في القصاري الصغيرة. تمدد على السطح ومد إليها يده، ناولته الحقيبة فوضعها بجانبه، ثم مد يده ثانية فقبض على يدها بقوة:

ــ لا تنظري إلى أسفل، لن أفلتك.

ترددت قليلًا فجذبها، وضعت يدها الأخرى على السور وقفزت وهو يسحبها فجلست على السور، كان كل اعتمادها على يده التي تمسك بها:

ــ لا تفلتني.

ــ انظري إليّ، الآن ستحاولين الوقوف على السور.

ــ لن أستطيع.

ــ سأساعدك، حاولي الوقوف وميلي نحوي.

رفعت قدمها على السور، التفتت إلى الشارع، رأت الداعشيين يتجمعون أمام المنزل، نظرت إلى الجانب الآخر فرأت سيارة سيف الحق.

ــ انظري اليّ.

ـــ سيرانا أحدهم.

ـــ إذن أسرعي حتى لا يرانا.

نظر إلى قدمها اليمنى فوجدها مرتكزة على السور.

ـــ سأعد إلى ثلاثة فأسحبك، واحد، اثنان، ثلاثة.

وسحبها من يدها فقامت واقفة وقد مالت نحوه وتشبثت بقميصه، تقبض عليه بيد مرتعشة. وضع يدها التي يمسك بها على كتفه، مد يده فأمسك بحزام بنطالها وجذبها إلى أعلى، تحاملت عليه حتى استقرت بجانبه، ثم انتفضت بعيدًا عنه تسوي ملابسها، وتحاول نفض الغبار عنها.

كان المنزل الذي يريد الهبوط منه أقل من سطح منزلهم بطابق، وكان هناك عدة أعمدة خرسانية، تلتصق بالحائط وتكاد أن تصل إلى السطح، تبرز منها أسياخًا حديدية طويلة. فكر في استخدام هذه الأعمدة في الهبوط، نظر حوله فلم يجد شيئًا ذا بال يستخدمه، تجول بصره في السطح الذي يريد الهبوط عليه فلمح ملابسًا على أحبال الغسيل.
أمسك بالأسياخ الحديدية ومد قدمه حتى استقرت على العمود الخرساني، ثم قفز. أخذ بعض الملابس بحرص، ربطها في بعضها البعض فصنع منها حبلًا غليظًا، قذف بطرفه إلى رحمة فربطته في الأسياخ البارزة بإحكام. قال لها سأصعد إليك، لكنها رفضت الفكرة تمامًا، قالت أنها تستطيع الهبوط وحدها دون مساعدته. وكانت لوحة من أطرف لوحاتها، فتاة رشيقة ترتدي النقاب، تمسك بحبل مربوط بأسياخ حديدية، وتمشي على الحائط كأفراد الصاعقة.

استقرت بجانبه فأمسك بيدها، توجها إلى السلم ونزلا الدرج ببطء، سمعا صوت باب ينفتح فتحجرت أقدامهما، كان أحدهم يصعد إلى الأعلى، سحبها وصعدا بهدوء، أخذ عقله يدور، ماذا لو كان الصاعد يقصد السطح؟.. تذكر أن الملابس كانت جافة. هل يُعقل؟!

أحدهم وقف أمام باب شقة يطرقه، نظر جلال إلى الأسفل، إنها إحداهن. أخذت تطرق ولا مجيب، حتى يأست فقررت النزول. نزل جلال ورحمة بهدوء حتى وصلا إلى مدخل البيت، الذي يقع في شارع صغير جانبي، وخرجا متوجهين إلى شارع رئيسي ينتهي إلى موقف سيارات. حيث سيستقلا عربة إلى موقف المدينة، ثم يستقلا أخرى إلى الريف.

***

دخل الشقة يتجول ويبحث، لم يجد أحدًا، لكنه عثر على بنطالًا وعباءة، قد اتسخت أطرافهما بالطين. قفزت شياطينه أمام عينيه. لمح جهاز الكمبيوتر، توجه اليه وفتحه. ثم توجه إلى النافذة ونظر إلى الرجال. أشار إلى أحدهم أن أصعد. لمح حقيبة بلاستيكية فأفرغها من محتوياتها القديمة ووضع فيها البنطال والعباءة. عاد إلى الكمبيوتر وأخذ يبحث فيه، فاكتشف أمر الجريدة الإخبارية المعارضة. فطن إلى أنه أمام مؤامرة كبيرة. ظلت شياطينه تتراقص أمام عينيه، وتخرج له ألسنتها، حضر الرجل:

ـــ قلت لكم أن تتأكدوا من عدم خروجه.

ـــ لم يخرج يا شيخنا.

غضب سيف الحق:

ـــ أين هو إذن؟ هل تبخر في الهواء؟!

ـــ لا بد أنه استطاع الهرب بطريقة ما.

ـــ هذا الشاب متآمر، وهو مطلوب للمحكمة الشرعية فورًا.

ـــ سأفعل ما بوسعي يا شيخنا.

حاول أن يستعيد هدوئه، أمره أن يحمل الكمبيوتر إلى عربته، أزال الرجل وصلات الجهاز وحمله، استوقفه سيف الحق:

ـــ هل دخل المنزل وحيدًا؟

ـــ نعم، لم يكن مع أحد، ولم يكن يحمل شيئًا.

ـــ متى جاء؟

ـــ منذ ساعة تقريبًا.

ـــ هل دخل أحد إلى المنزل قبله أو بعده؟

ـــ لا أحد يا سيدنا، باستثناء امرأة يبدو أنها من سكان المنزل.

ـــ يبدو؟!

ـــ أقصد أنها منقبة ككل النساء.

سأل بنفاد صبر:

ـــ ألم تعرف إلى أين توجهت تلك المرأة؟ في هذه الساعة؟!

ـــ نحن لا نستوقف الراجعات إلى البيوت يا شيخنا، وإنما نستوقف الخارجات فقط.

ـــ يا لكم من أغبياء متحذلقين!

ـــ اعذرني يا شيخنا.

ـــ اذهب الآن.

أحس بغيظ شديد، أخذ يفتش في الشقة وهو يتوعد، سيضرب رقبة هذا الشيطان بيده، أما الخائنة فسوف تعيش في عذاب مهين. سيرى كل إبليس متجرأ مآله، وسيعرف كل ملعون مقامه.

لم يجد شيئًا ذا بال، فخرج. إن كان لم يهبط فهل صعد الشيطان؟.. هاهو يتجه إلى السطح، في الظلام الدامس، ويشعر بالأعين تتلصص من وراء الأبواب، دون أن يجرؤ أحد على فتحها. وصل إلى أعلى طابق، نظر إلى السور القصير فتلاطمت أفكاره. هل يختبىء عند أحد الجيران؟ هل هناك متواطئون؟.. سينكشف كل شيء. هبط إلى أسفل يحدق إلى الأبواب المغلقة. وأمر الرجال بمحاصرة المكان وتشديد الأمن، حتى يقع جلال في أيدي الدولة. ثم ركب سيارته وانطلق.

***

(٧)

مشت العربة في طريق ضيق طويل، تحفه الزراعة من الجانبين، ويكاد يتسع لها. كان جلال قد اتصل بصديق له يقطن في الريف، ويعمل مراسلًا لجريدته. كان سيمكث معه قليلًا حتى يستطيع الذهاب لعائلته. أخذت عيناه تتحرك في كل اتجاه، نظرات يغلفها الحذر والترقب. أما هي فقد كانت بجوار النافذة، تتابع الأشجار تتقهقر إلى الوراء، كلما فرت هي إلى الأمام، تتابع الطريق يصير ماضيًا في لحظات. كانت العربة مملوءة بالناس، ومملوءة بالصمت، امتزجت الآلام بالآمال، وصار التعايش هو سيد الموقف.

مضت الأشجار وظهرت الحقول الخضراء المنبسطة، التي تترقب مصيرها في صمت. التفت إلى النافذة، هل حان الأوان كي يعتمدا على أرجلهما؟.. ستظهر نقطة تفتيش عما قريب، ولا يستطيع المخاطرة بالبقاء. وصلت العربة إلى مفترق طرق، أخبر السائق بأنه يريد النزول، وترجلا من العربة، تشيعهم نظرات الركاب الغائمة.

وانطلقت العربة تاركةً إياهما والطريق والحقول. أمسك بيدها فتسارع نبض القلب. سارا وسط الزراعة، حتى قامته وأخبرها أن تفعل مثله.

ـــ إلى أين نحن ذاهبون؟

ـــ سنأخذ طريقًا آخرًا كي نتفادى نقاط التفيش.

رغم المخاطر ورغم المخاوف، كانت الفنانة بداخلها، تستطيع رؤية الجمال في كل خطوة معه. رغم المخاوف ورغم المخاطر، لم يكن لما يحدث، تلك الوطأة التي ينبغي أن تكون له، رأت كل شيء من خارج ذاتها. ووقعت فريسة موضوعية للذهول.

***

ألقى سيف الحق أحرازه أمام أبي بكر، أخبره بالمؤامرة التي تحاك ضده، أمسك أبو بكر بالعباءة وقد احمر وجهه من الغضب. قال بصوت أجش:

ـــ هل أصدرت الأوامر إلى وحداتك بالقبض على هذا الخنزير؟

ـــ حدث يا شيخنا، سيقع في أيدينا بأقصى سرعة.

ـــ أريدهما أحياء، وفي سرية تامة.

ـــ بالطبع يا شيخنا، وسوف نوقع بالشبكة كلها.

ـــ أريد فصل الإنترنت إلا عن جهازنا الإعلامي.

ـــ قرار حكيم، سأبدأ في تنفيذه على الفور، ولو أردت منع الهواتف وكافة وسائل الاتصال.

ـــ افعل كل ما بوسعك حتى تحصر المؤامرة. ماذا فعلت في أمر أبي حمزة؟

ـــ كان مقررًا أن ألقى المنفذ هذا الصباح ولكن...

ـــ ولكن ماذا؟.. أعقد لقاءك وائتني بخبر تصفيته في أسرع وقت.

ـــ أعدك بحدوث هذا.

ـــ لا بد أن نكون على قلب رجل واحد، فليخضع الجميع للتفتيش، ولتقتل كل من تشك في خيانته دون تردد، فلتذبح كل شيطان، ولتشنق كل خنزير.

ـــ ستتم إبادة الشياطين يا شيخنا، ولن يبق إلا المؤمنين.

ـــ اذهب الآن ولا تأت إلا بجديد.

قبل يده ثم تراجع خارجًا، وجلس أبو بكر يغلي الدم في عروقه. توجه إلى الحمام ليتوضأ عله يهدأ قليلًا، سمع صوت امرأته الحبيسة تطرق الباب وهي تصرخ:

ـــ ستكون نهايتك على يدي أيها الدجال.

تجاهل صراخها واتجه إلى غرفة القيادة، أطل من الشرفة الكبيرة على جنوده المدججين. أسفر الصبح، وكان هذا موعد تغيير الخدمة. أخذ يراقب الجنود وهم يتركون أماكنهم لفرقة حراسة أخرى، لا أحد يرفع رأسه، لا أحد ينظر ناحيته، حتى الشرف والنوافذ قد أغلقت جميعًا بأقفال من حديد، لم يكن هناك شرفة مفتوحة في الشارع بأكمله، عدا شرفته، وشعر لوهلة بأنه حبيس، لقد وضع نفسه في سجن هو سجانه.

تذكر فتنة، تذكرها قلبه، انتابته رغبة عارمة في أخذها والهرب معها وترك كل هذا. لكنه أفاق فجأة وقد استولى عليه الغضب، أخذ يستعيذ بالله من الشياطين. قرر أن يقتلها. أمسك بسلاحه وهبط على السلالم. لكنه توقف أمام باب شقتها، تذكر حديثها عن رسومات ابنته، تذكر مساعداتها وآرائها الحكيمة، التي رافقته في مسيرة حربه على الشيطان، لقد جعلته يكتشف نفسه.

اقتلها قبل أن تقتلك، اقتلك قبل أن تقتلها، ستقتلها قبل أن تقتلك، ستقتلك قبل أن تقتلها. وصوب المسدس إلى رأسه فجأة، ماذا لو أنهى كل شيء بضغطة واحدة؟

لو هزم نفسه بنفسه، بعدما اقترب من الانتصار ونازعه، فتكون هذه نهايته، ويعطي روحه للشيطان على طبق من ذهب. لن يحدث هذا أبدًا، لقد أراد شيئًا، ولا بد أن تنفذ إرادته. أبعد المسدس عن رأسه وتأمله، شدد قبضته عليه، هاهي القوة في يده، ولن يتنازل عنها مطلقًا.

***

سار الحبيبان مسافة طويلة، وسط الحقول الخضراء، التي لا تعرف مصيرها، تحت الشمس الحارقة. نال منها التعب، كاد الإعياء أن يصيبها. توجه بها إلى شجرة قصيرة وارفة، يحتميان بظلها. كان عطشها شديدًا، فتحت حقيبتها وأخرجت زجاجتي العصير، قال لها وهو يبتسم:

ــ يالك من ذكية.

اتسعت ابتسامتها الجميلة، تساقطت الكلمات من فمها الرقيق:

ــ لم أخطط لهذا ولكن.. هناك أشياء تأتي في وقتها.

ــ معك كل الحق يا سيدتي.

وارتويا. نظر إلى البساط الأخضر الممتد على مرمى البصر، تنعكس عليه أشعة الشمس. ثم نظر إليها فوجد أجفانها تتثاقل، قال لها:

ــ نحن على بعد أفق من الحرية. تساءلت بصوت متعب:

ــ وهل يستطيع أحد حساب الأفق؟!

ــ ولم لا؟ طالما نستطيع رؤيته ورسمه.

ــ لن أستطيع السير كل هذه المسافة وأنا نائمة.

ــ ما رأيك لو حملتك بين ذراعي؟

ــ ليس مضحكًا.

ضحك كثيرًا ثم قال:

ــ سنستريح قليلًا ثم نستأنف المسير، فات الكثير.

نظرت إليه متعبة، ثم غرقت في ملامحه، ظلت تقاوم الغرق وتحاول السباحة، لكن بدا لها الغرق لذيذًا، وبدت لها المقاومة بلا جدوى، فاستسلمت حتى استقرت في القاع، وأطبقت عينيها.

شعر بحنان جارف تجاهها، تركها تنام كي تنال قسطًا من الراحة. ألقى جسده بجانبها كي ينال نصيبًا من الظل، وظل محدقًا إلى الأفق.

سيعبر هذه الحقول إلى بر الأمان، سيذهب لعائلته وقد جلب روحه معه، روحه المتعبة، المنهكة. كم كان محقًا عندما أخبرها أنها خلقت له، وأنه خلق لها. لا يصدق أنه اقترب من تحقيق أول انتصاراته في هذه الحياة، وفي هذه البلاد.

وكأنها لحظة خاطفة، وكأنها رمشة عين، ارتداد طرف، قبل أن يشعر بقدم تركله في كتفه. فتح عينيه لكنه لم يفق، تطلب الأمر بضعة لحظات قبل أن يدرك ما يحدث. كان أحد مسلحي داعش يقف فوق رأسيهما، يوقظهما بقدمه وهو يقول:

ــ قم أنت وهيّ، ماذا تفعلان هاهنا؟

ارتعشت رحمة والتصق ظهرها بالشجرة، صوب الرجل سلاحه تجاه جلال فرفع يديه، أمرهما بالقيام والسير أمامه. سار الحبيبان بمحاذاة بعضهما البعض، نظر جلال بطرف عينه إلى رحمة فوجدها تنظر إليه بطرفها. تسارعت الدقات، كاد أن يتوقف قلبه، غامت الدنيا ودارت رأسه، تصلب جسده وسقط على وجهه.

تسمرت رحمة في مكانها، صاح به الرجل كي يقوم فلم يجب، نغزه بسلاحه، مال عليه يقبض على ملابسه، استدار جلال في لحظة خاطفة فزرع خنجره في رقبة الداعشي.

أخذ الدعشي الخنجر فترنح، وضعت رحمة يدها على فمها، سقط الرجل فتوجه إليه جلال، نزع الخنجر من رقبته ووضعه على صدره، سحبه ببطء فانشق قميص الداعشي، اتسعت عينا رحمة، رفع جلال يده بالخنجر ثم هوى به على قلب الرجل، ارتعش جسد الداعشي وخرج الدم من فمه، أعاد جلال الكرة فظل يرفع يده ثم يهوي بالخنجر على صدر الرجل. وكانت لوحة صادمة، اختزنت كل ملامح الوحشية في وجه ملاكها، كان شخصًا آخرًا لا تعرفه.

غزا الرعب قلبها فهرولت. كانت ملابسها تعيقها فاختبأت خلف شجرة، سمعت صوته يناديها، كانت خائفة، مدت يدها فشقت جانب الجلباب حتى تستطيع الركض، انتظرت حتى أحست بالهدوء ثم انطلقت تركض. لمحها فركض في أثرها، كان منهكًا لكنه واصل المطاردة. غابت عن عينيه فأخذ يتفرس فيما حوله، ويرهف السمع إلى

حفيف الشجر. دار حول نفسه حتى لمح سوادًا يتحرك فانطلق في أثره. أعطاها الخوف سرعة كبيرة، لكنه اندفع بأقصى قوته. أخذت المسافة في التقلص حتى أمسكها بيديه.

خبأت رأسها تحت يديها كي تتفادى ضربًا وقهرًا متوقعًا، زلزله رد فعلها اللاإرادي هذا. لم يخطر بباله أن يلحق بها أذى، هاله أن يصيبها منه الخوف. رفع يداه وأبقاهما مرفوعتين. تنبهت لكونه لن يقوم بضربها أو تعنيفها. نظرت إلي عينيه الحزينتين، أحاطها بذراعيه فتشبثت به، كأنما عاد إليها من سفر طويل.

أغمضا أعينهما وغابا عن الوجود، اختلطت نشوة الظفر بنشوة الحب، وعانقت نشوة الخوف نشوة الإثارة، تراقصت الرياح وتمايلت الزروع، واهتزت القلوب، وشهدت السماء على كل هذا. كان هذا قبل أن يستمعا إلى مقطوعة شد الأجزاء المزعجة، نظرا حولهما فوجدا رجال داعش يحيطون بهما من كل جانب، ويصوبون أسلحتهم إليهما.

***

(٨)

حاول القمر إيجاد مجال للرؤية، فتوسط غيوم السماء، ورضي بكثافتها، ثم ألقى بظله الباهت على شرفة أبي بكر.

دخل سيف الحق على أبي بكر القاهري مستبشرًا. قال أنه جلب له هديتين، الهدية الأولى هي خبر استشهاد أبي حمزة الأنصاري. تساءل أبو بكر عن الثانية فنادى سيف الحق على جنده. دخل جنديان وبصحبتهما جلال ورحمة، مقيدين.

وقف أبو بكر يدير نظره بينهما. توجه نظره إلى عبائتها الممزقة، صرف سيف الحق جنده بإشارة من يده، ثم ناوله مفتاح قيدهما. فك قيد رحمة في صمت ثقيل. تحاشت النظر إليه، كان وجهها جامدًا، خاليًا من أي تعبير. سحبها من يدها، صاح جلال:

ـــ إلى أين تأخذها؟

تلقى ضربة من مسدس سيف الحق على مؤخرة رأسه، بينما لم يجبه أبو بكر. أخرج مفتاحًا ففتح الغرفة التي يحبس فيها أم رحمة. كانت ملقاة على الأرض فاقدة للوعي، انطلقت رحمة نحوها في رعب تحاول إفاقتها، نظر أبو بكر قليلًا ثم أغلق الباب عليهما بالمفتاح.

عاد إلى جلال. وقف أمامه ينظر في عينيه، يحاول قراءة كل ما حدث، شعر بإعجاب دفين بجرأته، أراد أن يتلبس روحه فيفعل بها الأعاجيب، لكنه لا يرى إلا العناد في تلك العيون. وضع يده على كتفه وهز رأسه مستنكرًا. لاحظ بعض علامات التعذيب على

رقبته، عرف أن سيف الحق قد أخضعه للتحقيق دون إذنه، أسرها في نفسه. توجه خارجًا وأشار إلى سيف الحق أن يتبعه، وضع سلاحه في رأس جلال ودفعه وراء أبي بكر.

دخلوا في حارة جانبية ملاصقة لبيت أبي بكر، كانت منازلها كباقي منازل الشارع، تستخدم كمنشآت للولاية. توجه أبو بكر إلى إحدى المخازن الضخمة الخالية، فتح الباب الحديدي، فتردد صرير مزعج في المكان، ثم فك قيد جلال بالمفتاح الصغير، ودفعه داخل المخزن.

قال لسيف الحق:

ــ أعطني سلاحك وباقي أغراضك.

استولت الدهشة على سيف الحق، قال وهو يناوله السلاح:

ــ لماذا؟!

ــ ستؤنس وحدته!

ــ هل ستسجنني يا شيخنا؟! بعد كل هذا؟!

رد غاضبًا:

ــ وهل ستعصي أمري؟!

حنى سيف الحق رأسه قائلًا:

ــ معاذ الله يا شيخنا.

ثم دخل فأغلق أبو بكر الباب الحديدي عليهما.

عادت كل الأمور تحت سيطرته تمامًا، سار عائدًا إلى حصنه، لكنه توقف أمام شقة فتنة. اقترب حتى التصقت رأسه ويديه بالباب. أراد أن يدخل لها، كان يريد شخصًا يتحدث معه بصدق، يظهر أمامه على حقيقته، أخرج المفتاح وأراد أن يفتح، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة.

***

أفاقت الأم بين يدي ابنتها، ضمتها إلى صدرها وهي تبكي، قالت بصوت ضعيف:

ــ أين كنت يا ابنتي؟

سال الدمع على خد رحمة:

ــ أنا آسفة يا أمي، لقد فكرت في نفسي فقط.

كادت المرأة أن تغيب عن الوعي مرة أخرى، أفاقتها رحمة، ضاعت في مجاهل الفزع، ثم انتبهت فوضعت رأسها على الأرض برفق، واندفعت إلى الباب تطرقه بلا جدوى.

جاءها صوت أمها:

ــ لن يجيب يا ابنتي، لقد أصيب أبوك بالجنون.

وقفت رحمة وسط الغرفة وقد استولى عليها العجز الشديد، مالت رأسها وهي تحدق في الفراغ، مدت يدها إلى رأسها فأخرجت دبوسًا معدنيًا، توجهت إلى الحائط وتأملته، ثم انطلقت ترسم لوحة المجهول.

***

كان المكان فارغًا ذا سقف مرتفع، قد انتشرت فيه الأعمدة الخرسانية، وتناثرت أكوام التراب فوق أرضه الطينية الواسعة، ترددت أصداء ضحكات جلال في أرجاء المكان، صوب سيف الحق نظرات الغيظ إليه:

ــ أتعرف لماذا حبسني معك؟

أمسك جلال عن الضحك فجأة:

ــ لأنك لست سوى كلب من كلابه!

اشتعل غيظه وهو ينطلق نحوه قائلًا:

ــ بل لكي أقتلك!

ودخلا في اشتباك عنيف. أمسك سيف الحق به فدفعه إلى أحد الأعمدة الخرسانية بعنف، سدد له جلال ضربة رأسية في أنفه فنزفت، ثم سدد ركبته إلى فم معدته. رفع ذراعيه فجأة يبعد يدا جلال عن كتفيه، مسح الدم عن أنفه وهو يسعل بشدة، ثم توجه إلى جلال مزمجرًا، وقبض على رقبته يعتصرها عصرًا.

كان مقررًا أن يلقي أبو بكر القاهري خطبة من شرفة منزله هذا الصباح، وكانت المعارك على أشدها. تناثرت أنباء عن خسائر جسيمة، أصابت الجيش الداعشي على الحدود الغربية. أراد أن يرتب أفكاره وأن يستجمع شتات قلبه، تسلل إليه إحساس بالضعف والتخبط.

وجد نفسه يتوجه هابطًا إلى فتنة. فتح الباب فهبت عليه عاصفة من الغبار الأسود، لم ير شيئًا من شدة الغبار، دخل يتلمس طريقه وهو يسعل بشدة، كانت الأرض مكسوة بالفحم المطحون، اضطربت أفكاره. وجد فتنة ملقاة على الأرض، ترتدي قميصًا خفيفًا، يبرز مفاتنها التي اكتست بطبقات من الغبار. مرر إصبعه على جبينها فرسم خطًا، فتحت عينيها الساحرتين ببطء، مدت يدها إلى وجهه. قالت:

ـــ هل أتيت لتأخذ ما تبقى من قواي قبل أن أموت؟!

اتسعت عيناه ولم ينبس. أحاطت رقبته بذراعيها وهي تقول:

ـــ أعرف أنك تمر بوقت حاسم، سأعطيك كل ما أملك، لا أريد أن تدفن قواي معي!

ـــ عم تتحدثين؟!

ـــ لقد تسلل إليك الضعف، لقد كدت تفقد إيمانك بسلطتك، حبستني وأنت في أمس الحاجة إليّ، وهاهي قواي تتحول إلى غبار أسود!

دارت رأسه، جذبته إلى ثديها، استولت الشهوة عليه، قالت:

ـــ إن انتصرت عليّ الآن فسوف تنتصر في باقي معاركك.

أمسكت رأسه بيديها وقبلته، شعر بقبلتها تحبس أنفاسه، أمسك رقبتها بيديه وأبعدها، نظر في عينيها فوجد شيطانًا يتحداه؛ فقبلها بكل ما أوتي من شهوة، وبدأت المعركة.

واجه فرسًا جامحًا، عنيدًا، كلما روضه فاجأه بجموح جديد، كلما قبض على لجامه وجد أنه يقبض على الهواء، لكنه استطاع بسط سيطرته في النهاية. وشعر بكامل سلطانه.

سقط فوقها يلهث. أخبرها بأنه لم يمر في حياته بمثل هذا، حتى في المرة الوحيدة التي مارس الجنس معها. قالت أنها تشعر بنفس الشيء.

قال لها:

ـــ لقد حبست سيف الحق مع جلال، أتدرين لماذا؟!

ـــ لأنك تريد روح جلال.

ـــ لقد أردت ذلك من أول يوم.

ـــ وقد أحسنت التصرف. فإن قتله سيف الحق تحررت من هذا الهاجس، وإن قتله جلال فسوف يتآكل قلبه فيصير جاهزًا للتلبس.

ـــ يا لعبقريتي ويا لقوتك!

ـــ يا لقوتي ويا لعبقريتك!

ـــ لا أريد أخذ قواك ولكن أريني السبيل إلى قواي الخاصة.

ـــ سأريك السبيل إلى السلطة غير المشروطة، السلطة المطلقة.

ـــ وكيف هذا؟!

ـــ السلطة غريزة، فلا سبيل إليها إلا بالغريزة، لا تخاطب العقول وإنما خاطب الغرائز، لا بد أن يرى جندك فيك القوة المطلقة، لابد من الطاعة العمياء بلا قيد ولا شرط، لا

يوجد حق وباطل، لا وجود للخير والشر، ليس سوى القوة والضعف، فاختر ما شئت.

ـــ وكيف السبيل إلى هذا؟

ـــ توجد الكثير من السبل، المهم أن تعرف سبيلك الخاص.

ـــ سألقي خطبة هذا الصباح، بماذا تنصحيني؟

ـــ لا شيء، احلق شعرك ولحيتك، واعلن تأميم صالونات الحلاقة، ثم اطلق لحيتك مرة أخرى والغ مهنة الحلاقة، واقتل كل من يخالف الأوامر.

***

ارتسمت ملامح الرعب على الأم وهي تتابع لوحة ابنتها تكتمل، أتمت رسمة اللوحة أخيرًا، ثم تراجعت ونظرت إليها فتسمرت في مكانها.

***

خارت قواهما. تساند كل منهما على الآخر. ظلا يتبادلان الضربات الواهنة ببطء شديد من فرط التعب. وقعا على الأرض. نزف الدم من وجهيهما. شعر سيف الحق بأن معركته الخاسرة مع القدر توشك على الانتهاء، لكن يده قد توجهت إلى حجر فقبض عليه. جحظت عيناه. انطلق نحو جلال كثور هائج:

ــ أنا سيف الحق.

تفادى جلال الضربة سريعًا فاصطدمت الخرسانة برأس غريمه. أخذ جلال الحجر وهوى عليه بكل شراسة. سال الدم من رأسه. وقع جلال بجانبه. شعر بقلبه يتآكل، لكنه أخذ يتمتم قائلًا:

أنت سيف الباطل..

***

حلق أبو بكر شعر لحيته ورأسه، مرغ وجهه ورأسه في الغبار الأسود. كان موعد خطبته قد حان. احتشد جنده وحاشيته وضج الشارع بهم. قصد المرآة كي يطمئن إلى أناقته، وعندما واجهها جفل من انعكاس صورته. وتذكر يوم رأى شيطانه في المرآة، عريض الكتفين أصلعًا، ذا رأس ضخم ووجه مفحم. كان كيانًا مخيفًا، لكنه امتلأ بالجاذبية والكاريزما، كان كيانًا سلطويًا.

لقد قبل صفقة شيطانه من أول لحظة، قبلتها غرائزه العدائية، سيطرت غريزة السلطة على قلبه. لقد قبل بالصفقة عندما ترك العمل الحقوقي، عندما اختار تلاميذه بعناية، عندما ضاجع فتنة، لقد عبر خط اللاعودة.

نظر إلى فتنة فحنت رأسها للأسفل قليلًا تشجعه. توجه إلى الشرفة، كان الجميع بانتظاره، رأسه الآن مرتبة كما لم ترتب من قبل، منظمة، شاملة، كل السبل، كل الخطط، مئات الأفكار.

قفز على السور ووقف عليه. وضع يده على صدره، وأدخل إبهامه في فتحة قميصه. تفرس في الحشد الصامت المسحور، الذي ينتظر صفقته. كان كيانًا سلطويًا، ساحرًا، أحس بالقوة المطلقة.

ثم ألح عليه إحساس بأن ظهره مكشوف، شعر بالفراغ الهائل الذي تركه ورائه، أراد أن يلتفت لكنه لم يفعل، لم يرد أن يفلت أعين المسحورين.

تقدمت فتنة بهدوء واثق. وقفت خلفه مباشرة. مدت يدها بكل رقة. دفعته بإصبع من أصابعها. هوى كالصنم، تابع الناس سقوطه بأعينهم، اصطدم بالأرض، تحلق الناس حوله، أراد أن تنشق الأرض وتبلعه.

تمت